محمد عبد الغني حسن

بطل السند

المكتبة الازهرية

دمشق

بيت الأبطال

ليس بطل هـذه القصة التاريخية شخصاً من صنع الخيال ، أو صورة مما خلقه الوهم ، أو اسماً من الأسماء التي يلفها صناع المغامرات في رداء براق يختلب الألباب ويشق الأسماع •

إنه بطل بما تحمله لفظة البطولة من معان ، إنه رجل عاش في عالم الواقع، لا في دنيا الخيال، إنه فتى عربي الدماء ، مضري الآباء • ركب الله جسمه من اللحم والدم كما تتركب بنية الأجسام ، ولكن أودع بين جنبيه نفساً بعيدة المطامح نائية المطارح • حتى لتكاد الأرض على رحابها تضيق بآماله، والدنيا على اتساع شعابها تصغر دون مآربه •

وما عجب أن يكون بطل هذه القصة قد قُدّ على هذا الطراز ، وفُصل على هـذا القالب • بل قد يكون أعجب العجب لو أنه شذ عن هذا الطراز • فمن الظلم أن لا يشبه المرء آباءه • ومن يشابه أبهُ فما ظلم •••

لقد أنجبت أسرة هذا الفتى الماجد الكريم للإسلام فتياناً شُم الأنوف بيض الوجوه ، كرام الأحساب ، وكانوا سادة في الجاهلية حين كانت الأصنام تتخذ آلهة من دون الله•

فلما جاء الاسلام توج السيادة فيهم ، وعقد الألوية لهم ، ونشر منهم طائفة في شعاب الأرض يفتحونها بلداً إثر بلد ، ويسقطون معاقل الشرك فيها معقلا بعد معقل . ولا تزال الأرض البعيدة السحيقة ترمي بهم في أقطارها ، نشراً لكلمة الله ، وهم لايشكون سيراً ، ولا يخافون بأساً ولا رهقاً .

إنهم بنو ثقيف في الطائف . والطائف ربضٌ من أرباض مكة ، نضر الله أرضها ، وأبردَ نسمات الهواء فيها ، وأخرج من رياضها نباتاً مختلفاً ألوانه ، وفاكهة تسقى بماءٍ واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل ...

لقد اشتهرت الطائف فوق بساتينها ورياضها بدباغة الجلود والأُهب الطائفية المعروكة كما يذكر الهمداني – صاحب صفة جزيرة العرب – في وصفها وكأن أُهبَ شبابها وجلودأجسامهم المعروكة توائم الأُهُب والأدُمَ التي يصنعونها . ففيهم من الجلد في المواقف ، والصبر على المكاره ، والثبات في المعارك مايذكر دائماً بمتانة الأُهب التي تصنع بأيديهم ، والتي حازت في رحاب الجزيرة كلها شهرة عريضة ، كما حازت سيوف الهند شهرة في القتال ، والرماحُ الخطيّة شهرة في المصاولة والنزال .

كانت الطائف جلها أغلبُ مساكن بني ثقيف ، ولهم فيها السيادة والجاه من قديم . وفي بعض رجالاتهم في ثم الجاهلية وجاهة في النسب ، وعراقة في الحسب ، وعظمة في المنابت والأصول . أليس منهم عروة بن مسعود الثقفي الذي عادلت به قريش في عنادها ولجاجها محمداً عليه السلام ، وتمنت لو نزل عليه القرآن واختصه الوحي ، فقالوا : (لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟

أليس منهم معتّب بن مالك الثقفي الذي بعثه رسول الله الى قومه يدعوهم الى الإسلام ، ويبشرهم بالدين الجديد الذي جاء يفرق بين الحق والباطل ، ويوضح المعالم بين الظلمات والنور ؟

أليس منهم غيلان بن سلمة الذي كانت له في قومه الرياسة وإليه مقالد الحكم ، ومفاتح الأمر والنهي ، فوفد على كسرى أيام كانت وفود العرب تفدُ على دولة الأكاسرة يفاخرون بآبائهم ، ويذكرون مآثرهم ، ولايبالون ، وبين يدي كسرى الصولجان وعلى رأسه التاج ، أن ينتقصوا كل أمة غير العرب ، وكل لغة غير لغة العرب ، وكل مكرمة غير

فالمكارم العربية ؟

و— أليس منهم القاسم بن محمد أبو بطلنا ، وهو الذي كان والياً على البصرة من قبل الحجاج بن يوسف ، فأحسن الولاية ، وضبط الأمور ، وأجزأ في المهم الذي انتدب له ؟

أليس منهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأبوه ابن عم بطلنا ، وهو من هو في التاريخ الإسلامي ، وفي توسيع رقعة المملكة الاسلامية ، وفي تشجيع الفتوح ، وفتح الثغور على الرغم مما عيب عليه من قسوة بالغة في إراقة الدماء ، وفي الضرب على الأيدي ، وفي أخذ البريء بالمسيء ، حتى سكنت له وللأمويين ثوائر الفتن ، وخمدت نار الخلاف ، وسكنت ريح الثورات التي كانت تهدد الدولة العربية القائمة بصدع كبير ، وأمر خطير ؟

فلم يكن بطلنا محمد بن القاسم إذن خارجاً على السنن الذي بناه آباؤه • إنه من قوم كانوا يرون الموت على الفراش عاراً ، وكانوا يرون أن السيادة لا يمنع منها سنّ ، ولا يقيدها حساب بعمر • فقد يطول العمر ولا سيادة لصاحبه ، وقد تقصرُ مسافة الأعمار ، ولكنها تزدحم بالهمم الكبار التي لا منتهى لها •

ألم يسد الحجاج نفسه وهو فويق الخامسة والعشرين ، ثم صارت إليه ولاية الحجاز وهو في الثالثة والثلاثين ، ثم انتهت إليه ولاية العراق وهو حول الخامسة والثلاثين ؟ ولقد كان الحجاج يتعجل مراتب السيادة والرياسة كأنه معها على رهان • فهو في أول أمره معلم صبيان بالطائف ، وفي الخطوة التالية نراه شرطيّاً في شرطة عبد الملك بن مروان ، فتأتيه الرياسة نتيجة لموقف حازم منه على المتقاعدين عن القتال ، فإذا هو رئيس مقدم عند الخليفة الأموي الذي أعطى فراسة في اختيار الرجال •

لا ! لقد فاق بطلنا محمد بن القاسم ابن عم أبيه الحجاج في السؤدد على حداثة من السن ، بل فاق فتيان ثقيف جميعاً ، بل فاق آلافاً مؤلفة من رجال المسلمين وقوادهم ، بل فاق كثرة كاثرة ، وأمة ساحقة من رجال العالم كله ، شرقيه وغربيه ، قديمه وحديثه ، عُربه وعجمه ، حين فتح الله على يديه « السند » للمسلمين ، وسنه سبعة عشر عاماً ، لا تزيد ، بل قد تنقص ببضعة من الشهور •••

لقد قالوا في عقل الحجاج بن يوسف الثقفي إنه لا تدانيه عقول الرجال ، فهو راجح الميزان في التفكير والتدبير اذا قورن بمن عداه من كبار العقول ، ولكن محمد

ابن القاسم ـ بطل الهند والسند ـ ولا يكاد القواد العالميون يبلغون مداه أو يلحقون غبار فرسه ، حين تنصب للرجال الموازين القسط ، فلا يتحيف عليها اعتبار لمذهب ، أو ميل مع تعصُّب .

واللهم احفظنا من التعصب ، وخاصة اذا جاء ممن يُرجى منهم الانتصاف ، ويؤمل فيهم العدل ، وتُنتظر منهم كلمة الصدق . ولقد كان أهل ابن القاسم وقومه وقبيله موضعاً للانتقاص من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . وهو انتقاص دفع إليه التجني على الحق ، والإنكار للتاريخ والطمس لمعالم المتعالم المعروف ، والاستجابة لدواعي الغضب حين يميل بصاحبه الى الهوى ، فيخرجه عن جادة الرأي الصحيح ...

فقد ذكر التاريخ والمؤرخون أن عبد الملك بن مروان غضب على الحجاج بن يوسف يوما لأنه أهان أنس بن مالك خادم رسول الله عليه السلام ، وقد امتد به الأجل حتى أدرك عصر عبد الملك فكتب الى الحجاج كتاباً بالغ الشدة ، بادي التهديد ، واضح السخرية ، حين يقول في بعض مقاطعه : (أنسيتَ مكاسب آبائك بالطائف ،

وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل ؟) .

ولعل كلاما لم يُخرجه الغضب والسخط عن طريق الصدق والحق مثل هذا الكلام ... فان آباء الحجاج وآباء بطلنا محمد بن القاسم هم كما ذكرنا من بني ثقيف في الذؤابة ، وإليهم انتهت الرياسة في الطائف ، والوفادة على كسرى في الجاهلية ، والدعوة الى الاسلام في بداية الدعوة حين شكا النبي عليه السلام الى الله ضعفه وقلة حيلته ، وحين أغرى سفهاء الطائف الصبيان بالنبي ، يرمونه بالحجارة ويتصايحون عليه ، حتى اجتمع الناس عليه وألجأوه الى حائط من حوائط مدينة الطائف ، فجلس الى الجدار بعد أن ذهب عنه بعض الرّوع ، واطمأن بعض الاطمئنان ، واتجه الى الله قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ... اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ أم الى عدو ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ "غضب" فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع » .

وفيم ينكر عبد الملك بن مروان سيادة قوم الحجاج

وابن عمه محمد بن القاسم ، وهؤلاء أهل مكة أنفسهم يشهدون للحجاج بالشرف وعظم الأصل حين دخل مكة مخلصا لها من يد عبد الله بن الزبير ، فقد اعتذر الحجاج لأهلها لقلة مامنحهم إياه من الصلات والأعطيات ، فقال قائل منهم : إنا والله لانعذرك وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين .

وما لنا نحن وللحجاج الآن ؟ انما جئنا به هنا لأنه مع بطلنا ابن القاسم من نبعة واحدة ، ودوحة واحدة ، أخرجت للعرب والاسلام أشد الرجال ، وأحدّ النصال . ولقد كان بطلنا محمد بن القاسم ـ فوق قرابته القريبة للحجاج ـ صنيعة من صنائعه ، وسهما من سهوم كنانته ، رمى به في أقاصي الهند ، ومنازح السند فأبعد المرمى ، وعاد من هناك على الملك الاسلامي الناشيء بملك كبير ..

وعجيب أن يلتقي هنا البطل محمد بن القاسم وابن عمه الحجاج لقاء لم يكن منه مناص" ولا عنه معدى . ونحن نردّ بطل السند الى أصله ، وننسبه الى آبائه . فإذا ذُكرت ثقيف خطر على البال ـ في الحال ـ اسم الحجاج الثقفي ، واسم محمد بن القاسم الثقفي ، كما خطرت على البال

أسماء عشرات وعشرات من بني ثقيف ، فيهم البرّ والفاجر ، وفيهم الطيب والخبيث ، وفيهم الشهيد الذي قتل مع أمير المؤمنين عثمان ، وهو المغيرة بن الأخنس ، وفيهم الذي لم يرو سيفه من الدماء ، وهو الحجاج .

على أننا سنلتقي بالحجاج هنا أكثر من مرة ، فهو الذي صنع بطل السند على يديه وعينيه ، وهو الذي أرسله ليخوض الغمرات في حروب العراق ، قبل أن يبعث به على رأس الجيش العربي الى بلاد السند ليحطم فيها الأصنام ، ويرفع فيها لواء الإسلام .

ولتكن للحجاج عيوبه وخطاياه بجانب آثاره في توطيد دولة ، ودعم أركان أمة ، فقد كان من دهاة الرجال ، ومضت بسبيل لا يُرجى منها الا عفو الله . أما ابن القاسم ـ بطل السند والهند ـ فلم يكن ممن لوثتهم السياسة بأوضارها ، أو لطختهم بسواد معايبها . وانما كان بطلا نقياً ومجاهداً تقياً ، وسيفاً من سيوف الله الماضية ، سله الله لنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

ان ابن القاسم لم يكن يبني للأمويين ، كما بنى الحجاج . ولم يكن يعمل لشخص الوليد بن عبد الملك كما

كان يعمل الحجاج • لقد بنى لله ، وعمل لدين الله ، وتجردت نفسه من شهوة المطامع في حكم أو ولاية أو عمالة ، فعقد الله النصر على مفرقه وهو شاب بلغ الحلم أوتجاوزه بقليل •

ولقد لقي بطل السند من الجزاء مالا يتكافأ مع حسن الصنيع ، ولقي من الجحود مالا يقاس به سوء العرفان ، وقتلته شهوات النفوس ونزوات الأحقاد ، مصطنعةً في ذلك مكيدة افترتها ـ بتحريض من الحاقدين الناقمين ـ أميرةٌ سندية هي بنت ملك السند الذي اخترطته سيوف المسلمين الفاتحين •

أما قصة هذا البطل الشهيد ، وقصة هذا الفاتح الغالب وقصة هذه الأميرة التي اتخذت أداة لقتل الشاب العفيف البريء ، المغامر الجريء ، فقيما يلي من الصفحات ••••

أحاديث الطفولة

جلس الشيخ محمد بن الحكم ـ جد بطل السند ـ في داره الرحيبة بالطائف في ليلة من عام ٧٢ للهجرة يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ، ويدعو الله أن يجعل تحت امرأة ابنه القاسم غلاماً سرياً • وكان القاسم ـ أبو بطلنا المستكن في ضمير الغيب ـ قلقاً على زوجه نائلة حين جاءها المخاض وهي على حال من الصحة قد لا تطيق معها آلام الولاد ••• لقد كان الأب مشفقاً على زوجه ، وكان الجد متشوقاً الى حفيد له يرى فيه استمرار الحياة في الأحياء والأبناء ، ويحمل اسمه الذي كان أكرم ماتحمل الجزيرة العربية من أسماء •

لقد كان محمد بن الحكم ميمون التقية حين سماه أبوه الحكم باسم محمد ، وحين بشر محمد بغلام أسماه القاسم ، كما كان للنبي الهاشمي غلام أسمه القاسم • والليلة يتمنى أن يسمى الجنين المضمر محمداً لو وهب الله لهم غلاماً •

وما خيب الله أمنية المتمنى ، فقد هُرعت جارية في دار الحكم الى محمد بن الحكم وابنه القاسم تزف اليهما بشرى غلام سعيد •

واتجه محمد بن الحكم الى الله شاكراً ماحقق ، وجرى القاسم والبشر يتلألأ في عينيه الى الغرفة التي أهلّ فيهـا الوليد ، فطبع على جبينه قبلة ، وهو يهتف : محمد محمد !

وانطلقت البشرى في كل ناحية من الطائف ، وفي كل دار من دور ثقيف بأن القاسم بن محمد بن الحكم وُهب له غلام سريّ ، وأنه يحمل اسم جده محمد، فاستقبلت الطائف كلها نبأ البشارة بفرح كبير .

ونشأ الرضيع كما ينشأ الرضع من أبناء ثقيف ، ولكنه لم يصحب مولده ولا شهور رضاعه خارقة من الخوارق التي تنسب عادة الى كبار الرجال ، وعظماء الأبطال . ألم يقولوا إن الحجاج حين ولد سنة ٤١ هـ لم يقبل ثدي أمه الا بعد أن لطخوه بدم جَدْي أسود وطلوا به وجهه ، فأقبل على الثدي بعدامتناع ؟ ثم ألم يقولوا إنالقائد التتري تيمورلنك ولد ويـداه مخضبتان بالدماء ؟ ومن هنـا كان الحجـاج وتيمورلنك سفاكين سفاحين للدماء .

ومن حسـن الحظ أن التاريخ مر بمولد بطل السند ــ محمد بن القاسم ــ مروراً هيناً رفيقاً متواضعا ، فـلم يخلق أسطورة حول مولده ، ولم يصنع غريبة حول رضاعه .

ولكنه جعله طفلا كسائر الأطفال ، ولم ينصب حول ميلاده تلك الهالة التي تجلل موالد الأبطال .

ولكن قد يكون من سوء الحظ أن ميلاد بطل السند والهند مر في هدوء وصمت ونكران ، كما مرت ذكراه في هدوء وصمت ونكران . فقـد فتح الله به على المسـلمين والإسلام شبه القارة الهندية ، كانت حياته القصيرة في هذه الدنيا صراعاً وجهاداً في سبيل الله ، ونشراً لكلمة الله . ولكنه مات ميتـة الجحود والنكران ، فعذب صبراً فيمن عذبهم الخليفة سليمان بن عبد الملك من قوم الحجاج وأقاربه ، وضن عليه المؤرخون بالترجمة له ، والإطالة في ذكره ، الا أخباراً قصاراً ، أطال فيها المؤرخ ابن الأثير بعض الإطالـة وقصر فيها المؤرخ الطبري كل التقصير ، وذكرها صاحب فتوح البلدان وهو يذكر أخبار الفتوح .

تعالى الله الذي قسّمها حظوظاً ، فكما تختلف حظوظ الناس من الرزق والمال تختلف من الشهرة والصيت . ولو عَدلت الحظوظ ماقل نصيب محمد بن القاسم من الاشتهار عن نصيب عمرو بن العاص في فتح مصر ، وخالد بن الوليد في فتـح الشام ، وسعد بن أبي وقاص في فتـح فارس ، وطارق بن زياد في فتح الأندلس .

ولقد كان البطل المسلم قتيبة بن مسلم معاصراً لمحمد بن القاسم وأبلى في حرب خراسان وتركستان مثل ما أبلى محمد في السند والهند ، ولكن حظيهما من الشهرة مختلفان، فقتيبة يعرفه الأكثرون وتوضع فيه الرسائل ، وتكتب عنه الفصول ، وتذاع فيه الأحاديث • ومحمد بن القاسم لايعرفه إلا الأقلون ، ولم تجتمع أخباره المتفرقة القليلة الى اليوم بين دفتي كتاب •

وفي سنة ٧٥ هـ عين الحجاج والياً على العراق بعد أن صنع بالحجاز ما صنع ، وادّخر بذلك يداً عند الأمويين ، فكان له من الدالّة عليهم ما أقام له الأمور في العراق على هواه، يعين الولاة ويعزلهم بكلمة منه مسموعة عند عبدالملك ابن مروان • وهنا نجد القاسم ـ والد بطل السند ـ والياً على البصرة في أوائل ولاية الحجاج على العراق • وهنا ينتقل الطفل محمد بن القاسم الى البصرة حيث أبوه يليها ، فلا يذكر من أرض الطائف وبساتينها الا ماتختزنه ذاكرة الطفولة الباكرة من صور لا تلبث أن تأتي عليها الأيام •

ومرت الأيام والعراق مسرح للحوادث ، فالخوارج يقاتلون ويُقتلون ، وشبيب بن يزيد الشيباني ممعن في ثوراته ، والمهلب بن أبي صفرة مُمعن في قتال الأزارقة •

وأكبر الظن أن أخبار هذه الأحداث كانت تطرق سمع الطفل الصغير ، كما كانت تطرق سمعه أخبار وقائع العرب مع الروم ، ومناوشاتهم مع الترك بقيادة ملكهم رتبيل •

وبلغ الوليد بضع سنوات حينما بنى الحجاج مدينة واسط بعد أن تنكر له أهل البصرة والكوفة من العراقيين وكان قصده من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم ويركن في الحروب إليهم •

وامتلأت المدينة الجديدة الناشئة بسكانها الجدد ، وكان فيها قوم الحجاج ، وفيهم الطفل محمد بن القاسم الذي شهد في البصرة الواناً من الناس غير العرب ، كانوا يفدون اليها للصفق بالأسواق ، أو لمآرب أخرى من مآرب العيش في الحياة •

وأغلب الظن أنه لقي في البصرة ـ وهو طفل ـ قوماً من أهل السند الذين كانوا يجوبون الأمصار وأغلب الظن أنه سمع عنهم من عجائب الهند وغرائب السند ما طوح بخياله الى ذلك العالم البعيد الذي تفصله عنه بُحران وشُطآن •••

وهنا في مدينة واسط كان الطفل قد بلغ الحادية عشرة أو زاد عليها قليلا ، وبدأت أخبار الفتوح تدخل الى أذنيه

فيجد طرباً لسماعها . انه يسمع أن يزيد بن المهلب قد فتح قلعة نيزك وكانت من أحسن قلاع باذغيس وأمنعها ، ويسمع بعد قليل في العام نفسه أن عبد الله بن عبد الملك غزا بلاد الروم وفتح المصيصة وبنى حصنها .

ولم يكن هم محمد بن القاسم أن يستمع الى أخبار الحروب دون أن يشارك فيها ، فقد تطلعت نفسه الى خوض المعارك وهو دون البلوغ بكثير ، وهنا نجده في فرقة أرسلها الحجاج لمقاتلة عدوه عبد الرحمن بن الأشعث ، كما نجده في جيش الحجاج نفسه الذي خرج به لقتال عبد الرحمن في واقعة دير الجماجم .

ومن عجب أن الميادين التي تلقّى فيها محمد بن القاسم دروس الكر والفر لم تكن ميادين مع أعداء المسلمين ، ولكن كان بأس المسلمين بينهم شديداً ، فنال بعضهم من بعض . ولعل ابن القاسم سمع أو وعى من بسالة الخوارج واستماتهم في سبيل الفكرة ماهوّن عليه أمر الحياة في نظر نفسه ، ولعل قربه القريب من أحداث ابن الفجاءة وشبيب وعمران بن حطان قد أصغر في عينيه عظيمات الأمور . فهو يخوض المعارك مع الخائضين ، ويجيد الطعن والضرب ،

ويعرف مواطن الإحجام والإقدام ، فكل خطوة عنده بمقدار وكل كرّة عنده بميزان .

وأغلب الظن أن محمد بن القاسم لم يكن راضياً عن هذه الحروب التي تلقّى فيها أول دروس الجندية ، فلقد ضاق هو كما ضاق كثيرون غيره بهذه التارات والثورات التي لم تضع أوزارها بين العرب ، وماذا ينفع المسلمين أن يقتل ابن الأشعث أو محمد بن موسى بن طلحة ، أو عبد ربه الكبير ، أو بجير بن ورقاء وغيرهم من عشرات الرجال الذين يزدحم بهم تاريخ حكم عبد الملك بن مروان ؟

لقد تذكر محمد بن القاسم فتوح المسلمين في أيام عمر ، بل قفزت الى ذاكرته تلك الأنباء الضئيلة التي ترامت الى طفولته الباكرة عن فتح حسان بن النعمان لأفريقية ، وما صنع بالكاهنة التي كانت تملك البربر ، وكانت عظيمة المحلّ عندهم ، والتي ألّبت البربر على المسلمين ، فذاقت وبال أمرها على يد حسان بن النعمان .

وتذكّرت تلك الأحاديث عن الهند التي كان يحملها التجار وجوّاب الآفاق عن تلك الأرض الساحرة التي كان ينصب الذهب فيها على إلههم بوذا وسدنته وحراس بيوته ،

وأوثانه المنتشرة في كل مكان .

وعز عليه أن يرى في العراق قوماً يقتتلون فيما بينهم ، على حين أن هناك ــ خارج جدول المملكة الإسلامية ــ رقاعاً فسيحة من الأرض ، تخيم عليها ضلالات الجاهلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية ، ويعبد أهلها من دون الله مالا ينفعهم ولايضرهم ، ويسودها ظلام كثيف ضرب عليها قروناً وأجيالا ، فحجب عنها منافذ الضياء .

فإلام تظل هذه البقاع الفساح بيداً لا نجاة فيها لسائر، ولا دليل فيها لحائر ؟ ولماذا لا يتجه المسلمون الى هذه الأصقاع ؟

عهد المسلمين بالسند

كان الفتى محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن السند والهند منذ طفولته الباكرة ، حتى راوده خيالهما وهو حديث عهد بالولادة . ولم تكن السند في ذلك الحين غريبة كل الغرابة على المسلمين ، فقد كان لهم فيها سابقة من غزو في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفي إمارة عبد الله بن عامر على البصرة . نعم ! فبعد العام الثلاثين من الهجرة بقليل ، كان عبد الله بن عامر يرسل البعوث من ثغر البصرة الى ما جاوره أو بعد عنه قليلا من ثغور بحر فارس والمحيط الهندي ، وكان ثغر السند مما وقع عليه نظر ابن عامر ليزيد به شيئاً في رقعة المملكة الإسلامية .

وعين ابن عامر رجلا من رجاله ، هو عبد الله بن سوار عاملا له على ثغر السند ، وانصرف الى حروبه مع فلول الفرس حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم في عهد إمارته على البصرة سنة ٣١ هـ .

وتختفي أخبار السند من مسرح التاريخ الاسلامي بعد غزو ابن عامر لها وولاية ابن سوار عليها في عهد عثمان ، وتظل عشرة أعوام في موادعة مع المسلمين ، الى أن يجيء عام ٤٤ هـ ، ويعين الحكم بن عمرو الغفاري والياً على

خراسان ، فيرسل من لدنه محاربا جلدا على القتال ليغزو ثغر السند من جديد ، هذا المحارب هو المهلب بن أبي صفرة الذي اشتهر بعد ذلك بقتال الخوارج وأبلى في محاربتهم أصبر بلاء .

وتختفي السند من مسرح الحوادث أعواما أخر ، يكتفى فيها خلفاء بني أمية بإرسال عامل من قبلهم عليها يجمع خراجها القليل الضئيل ، وقديكون هذا العامل موضع الطمع من منافسين أشداء له ، يقبلونه على أمره ويريحون الثغر من ولايته ، كما حدث في أول عهد الحجاج بولاية العراق .

ففي سنة ٧٥ هـ — وهي السنة التي عين فيها الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج واليا على العراق — اتخذ عبد الملك عاملا له على ثغر السند هو سعيد بن أسلم بن زرعة ، ولم يكن سعيد هذا ممن تهاب سطوته ، أو تخشى صولته ، فقد خرج عليه أخوان ثائران طامحان من ولد الحارث ، وأقلقا عليه مضجعه بالليل ، وسدا عليه سبيل النهار . فقتلاه وغلبا على البلاد . فبعث الحجاج الى ذلك الثغر الثائر القلق برجل من تميم يتحرق قلبه ، ويتلظى حبا

للغزو والمجاهدة في سبيل الله ، هو مجاعة بن سعر التميمي ، فغلب على الثغر ، وأقر الأمور فيه على حال تسمح له بمواصلة الغزو على نطاق ضيق ، فغزا وفتح أماكن من إقليم قندابيل ببلاد السند . ولكن الموت كان راصدا له فلم يمهله حتى يستوفي العام أجله ، ومات بمكران .

كانت الجالية العربية الإسلامية الناشئة في بلاد السند تتسع قليلا قليلا وتقوم بينها من المصالح مايقتضي سهر العمال عليها وقيامهم بأمورها . وكان هناك جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الياقوت يحكمها ملك من ملوك السند ، وكان في الجزيرة نسوة ولدن فيها مسلمات ونشأن على الإسلام من آباء مسلمين ، ومات هؤلاء الآباء وظل النسوة بلا حام لهن ولا راع ، فأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب بهن الى الحجاج فيهديهن إليه ، وأرسلهن في سفينة أخذت تشق طريقها الى البصرة ، وفيما هي سائرة على وجهها الى قصدها إذا بجماعة من قراصنة الديبل يخرجون في بوارج لهم خفيفة ، فيأخذون السفينة بما فيها من المتاع ومن فيها من النساء . وهنا يرتفع صوت واحدة منهن مستغيثة قائلة : يا حجاج ! كما ارتفع بعد ذلك في العصر العباسي صوت عربية مستغيثة بالخليفة العباسي قائلة : وامعتصماه ...

ولم تضيع أمواج البحر ولا هديره ولا زمجرة رياحه صوت ذلك النداء الخارج من قلب عربية كسيرة ، في رفقة أخوات لها كسيرات ، واذا كان النسيم في رقته ينم على العشاق فيذيع أخبارهم ، أفلا تحمل الرياح في قوتها صوت الضعيفات المهيضات الى من يخفّ للنجدة ، ويسرع للمعونة؟ لقد بلغ ذلك الصوت المتكسر المضطرب مسامع الحجاج ، فيقول المؤرخون انه قال : لبيك ! لأن العربي سريع" بطبعه الى النداء ، فما بالكم اذا كان لنجدة النساء ؟

وسلك الحجاج أول الأمر طريقه الدبلوماسي ، فقد كان داهية في السياسة والدبلوماسية ، فأرسل الى ذاهر ملك السند يسأله تخلية النسوة اللائي أخذهن قراصنة الدّيبل احدى بلاده . فردّ ذاهر رداً لعل الله قصد به أن تصير الأمور في السند الى المصير الذي نحن مقبلون على وصفه ، من ضياع مملكة واسعة ، وفتح بلاد شاسعة ، والتمكين للعرب والإسلام من بلاد رحيبة الأرجاء ، وإعلاء كلمة الله في بلاد كانت للأصنام البوذية فيها دولات وسلطان.

لقد رد ذاهر ملك السند بأن الذين خطفوا النسوة العرب لصوص" لا يقدر عليهم ، ولا ينبسط سلطانه على سلطانهم ... وبذلك مهد للحجاج الأعذار في غزو بلاده

التي لايستطيع فيها — وهو ملك — حماية ضعيف ، ولا إغاثة لهيف .

فأرسل الحجاج جماعة من المقاتلة على رأسهم ابن نبهان الى مدينة الدّيبل مهد القراصنة ، ووكر لصوص البحر الفاتكين ، فقتل القائد ابن نبهان ، وانكسرت روح جماعته لمقتله ، فارسل الحجاج يستقدم جندياً اسمه بديل من عمّان ، ويأمره أن يسير الى الديبل ، يقاتل أهلها من لصوص البحار وقطاع الطرق ، فلقيهم بديل في شجاعة فائقة ، واستماتة بالغة ، ولكن الحظ قد أخلاه من طريق الفتح للسند ، كما أخلى القائد مجّاعة من قبله ، ليفسح الطريق للقائدالموعود، والفاتح المنشود : محمد بن القاسم.

ومن عجب أن يموت بديل بأسباب شجاعته ، وأن تكون منيته في فروسيته ، فقد نفر به فرسه نفاراً لم يستطع معه له كبحاً ، ولا له رداً ، فأحاط به العدو من مقاتلة الديبل وأهل السند فقتلوه ...

وهنا كانت الأسباب كلها تلح على الحجاج في إرسال جيش كبير الى بلاد السند ، يؤدب به العصاة ، ويفتح به الأرض ، ويحقق نصر الله الذي وعد به من ينصره .

فمن يكون ذلك القائد لجيش السند الذي تخبئه لها الاقدار ؟

علـى الأهبـة

دخل محمد بن القاسم على ابن عمه الحجاج مغاضباً حين ترامت الىأسماع المسلمين هزيمة البعوث الصغيرة التي أرسلت في ولاية الحجاج الى ثغرالسند . وكان قلب الشاب الشجاع يتميز من الغيظ على المصير الذي لقيه ابن نبهان ، وبديل ، وهما يريدان الثأر من قراصنة الديبل . وهل عقم نساء العرب عن أن يلدن أشباه القواد من أمثال خالد بن الوليد والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ؟

وانفجر الشاب أمام هيبة ابن عمه الحجاج ، لايخاف ذلك الداهية الذي أخاف قلوب أهل العراق . وقد كان لصلة ابن القاسم القريبة بالحجاج ، ومكان الدالة عليه منه ، ما جعله يُصرح بالمقـال ، ويندفع في الكلام ، ويسرف في الملام ، لا خائفاً ولا وجلا ، وهو يقول :

ـ مولاي وابن عمي ! لعل مصرع الشهيدين في غزاة السند قد هز أعطاف قلبك ، كما اهتزت له أركان الدولة ، فماذا أنت فاعل ؟ لقـد اختطف قراصنة السند من مدينة

الديبل بعض النسوة المهديات إليـك ، وردّ عليك ملك السند رداً لا يحمل العجز قدر مايحمل الاستخفاف بالمسلمين ونية الغدر بهم . وغداً يجترىء عليك أهل السند ، وينتقض على الدولة ملوكهم فيستردون الأرض التي كسبناها من عهد الخليفة عثمان بن عفان . ولقد آجبت نـداء المستغيثة بك ، ولكن جندك لم يحقق نصراً ، ولم ينصف ظلماً ، ولم يسترد الأخيذات الضعيفات . ولقد جئتك من فارس لعلي ألقى الله في أرض السند فأظفر هناك بأجر الشهيد . فهـلا أرسلتني الى ثغر السند ؟

ـ نعم الروح روحك يابني ، ونعم الجهاد جهادك ! وإني مسيرك في جيش على رأسه أبو الأسود جهم .

ـ والله يا أمير العراق مايضيرني أن أكون جنـدياً صغيراً لقائد من قوادك كأبي الأسود ، ففيه بلاءٌ ، وفيّ طاعة . وما أنا ممن يخالف لعاجل مصلحته ، فأبق أبا الأسود بفارس فان الحاجة اليه ماسة ، والخبرة ، فيه مرجوة ! وقد عرف الطرق وسلكها ، وبلا المواقـع واختبرها ، وأرسلني أنا الى السند آتيك بالأخائذ اللائي اختطفهن اللصوص ،

وآخذ لك وللعرب بثأر اثنين من خيرة قواد المسلمين ، وبَعدها يفعل الله مايريد ...

— ولكنك يابني في مثل سنك الباكرة لايجوز أن تنعقد لك قيادة على جيش ، فانك في عامك السابع عشر ، وفي المسلمين غيرك من تقدمه سنه ، ويؤهله عمره ليكون على رأس جيش الخليفة الى السند .

— ومتى كان السن يا أمير العراق حائلا بين المرء وبين مايستحقه من عمل ؟ وليس ذنبي أن تأخر بي الميلاد الى مابعد العام السبعين من الهجرة ، وتقدم بغيري قبل ذلك بعشرات السنين ؟ فاختبر بلائي يا ابن العم هذه المرة ، وأرجو أن يحمدك الاختبار !! فابتسم الحجاج ابتسامة تحمل من المعاني مالا يخفى على الشاب المقدام وقال :

— وكيف يصح يا بني أن أجعل مصالح المسلمين موضع الاختبار لديك ، مادام في ذلك مندوحة عنك باختيار غيرك من شيوخ الحرب ودهاتها ، ممن لهم سابقة قدم في الميادين ؟ وفيم تتعجل يابني القيادة وهي آتية لك مع الأيام ؟

— يا أميرالعراق ! لقد حزنني مصرع شهيدين في بلاد

السند لم يبرح خيال الدم المتقطر منهما يؤرق ليلي ، ويُقلق نهاري ، فهلا جعلتني لهما ثالث الشهداء ؟

— يا بني ! أخشى أن تقول الألسنة إن ابن يوسف الثقفي يحابي اهله ويصانعهم ، ويؤثرهم بالمناصب على غيرهم من أبناء المسلمين .

— ولكنني يا أمير العراق لا أطلب منصباً ، ولاأطالبك برزق ، وإنما أطلب منك أن تعينني على موتة في سبيل الله ، فأعني على الموت يَهب لك الله الحياة !

— تأبونَ يا بني ثقيف إلا أن تسبقوا الى الفضل ولو على أطراف الرماح ! فخذ يابني سيفك وامض لوجهك على بركة الله ، وكن — من الآن — عاملا لبني أمية على ثغر السند . وسيأتيك كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك بإقرار العهد لك .

* * *

ومضى محمد بن القاسم والفرح يملأ مسالك نفسه ، وأخذ يعد للغزو عدته ، ولم يتركه الحجاج يستقل وحده بتدبير أمر الجيش الجديد ، ولكنه أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج إليه في ساحة القتال ، بعيداً عن قواعد الإمداد ، ومراكز التموين ...

ولم يترك الحجاج صغيرة الا أمدّ بها ذلك الجيش الذي يعلق عليه المسلمون أكبر الآمال . حتى الخيوط والمسالّ والإبر مما يحتاج اليه في رفو الثياب ، ورتق العياب ، كانت مما جهز به الثقفي جيش السند المتأهب للقتال .

وأعجب من هذا أن يفطن الحجاج الى حب العرب للخلّ في طعامهم ومعيشتهم ، يطبخون به ويصطبغون ، والخل في بلاد السند ضيق شحيح ، فكيف سبيل جيشه اليه وهو مما يثقل حمله في الدنان على ظهور المطايا ومتون الدواب ؟ لقد فكر الحجاج في حيلة لطيفة يزود بها جيش السند بحاجته من الخل في غير مشقة من الأحمال الثقال ... لقد أمر بالقطن المحلوج فنقع في الخل ، ثم جفف في الظل — حتى لا تبخره الشمس — ووضعه خفيف المحمل مع ماوضع من الذخيرة وميرة القتال .

وسير الحجاج مع البطل الشاب ستة آلاف مقاتل تتحرق نفوسهم الى الشهادة في سبيل الله ، وقد خرجوا من ديارهم على نية البيعة لله ولدينه ، فإن قُتلوا فلهم أجر

المجاهدين ، وجزاء الشهداء الصالحين ، وإن عاشوا فان حياتهم لله موهوبة ، لا يضيرهم أن يسبق اليها الدعاء ، أو يتأخر بها النداء ...

اندفع محمد بن القاسم ووراءه جنوده كالسهم يمضي الى رميته في مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يحيد عنه ولا يميد • وخرجوا تسيل بأعناق مطاياهم البطائح ، فسار محمد الى مكران فأقام بها بضعة من الأيام ، ثم أتى مدينة قنزبور ففتحها ، ولم يجد في فتحها كبير عناء ، ثم اتجه الى مدينة أرمائيل ، فلقي فيها مقاومة لم تقوَ على حماسة جيشه وصبرهم في القتال فسلّمت المدينة •

وكان تعريج ابن القاسم على هاتين المدينتين في طريقه الى مدينة الديبل هو من باب التمهيد للغزوة الكبرى ، فمضى بعد فتح إرمائيل على غايته الى المدينة التي كان منها متلصصة البحار وقرصانه ـ الديبل ـ فنزل بها وكان اليوم يوم جمعة ، وكأنما كان هو والسفن الإسلامية التي تحمل السلاح والأداة وبقية الرجال على ميعاد ، فوافته قطع الأسطول الأموي في اليوم نفسه • والتقى الجمعان من بعوث البر وبعثة البحر في مدينة الديبل ، وخندق القائد الشاب ، وأنزل الناس منازلهم ، على عادة العرب حين يقاتلون •

ونَصب ابن القاسم منجنيقاً ضخماً أحضره معه في جملة عتاده ، يقال له العروس • وبلغ من ضخامته أن خمسمائة رجل كانوا يديرونه في ساعة الرمي • واتخذ القائد الشاب موضع العروس أمام صنم هائل الحجم ضخم البناء ، تهوي إليه أفئدة العباد من أهل الهند والسند ، يعظمونه ، ويقربون إليه القرابين ، وينحرون له الذبائح على نحو ماكان يفعل العرب في جاهليتهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، والخروج الى النور من الظلمات •

وكان صنم الديبل ـ أبو بُدّها كما أسماه العرب الفاتحون ـ ترتفع فوق هيكله الضخم سارية عظيمة ، عليها راية حمراء واسعة الأطراف ، حتى لقد بلغ من سعة رقعتها أن الريح اذا هبت عليها كانت تدور فتطوف بالمدينة المقدسة في دورانها فتهفو إليها أفئدة الألوف المؤلفة من أهل المدينة • وقد رُكزت هذه السارية العالية على منارة عالية فوق بناء البد العظيم •

وكان مما وضعه ابن القاسم من خطة للغزو أن يقصد هذا الصنم الهائل الضارب في عنان السماء كأنه جبل يطل على الأرض من شاهق أو يزحم النجوم في مدارها ، فيصيب

منه ثلمة ، فتنثلم معه حينئذ قلوب المقاتلين من أهل السند ، وتنكسر أرواحهم ، وتذهب أنفسهم حسرات على المعبود المقدس الذي يعظمونه ويجلونه ، وينزلونه منازل التقديس .

ولقد عرف ابن القاسم ذلك فيما عرف . مما كان يتلقفه من أخبار السند وهو في البصرة طفل طري الإهاب . فأحكم الخطة لذلك ، وجلب معه المنجنيق الهائل : العروس ، حتى لا تقف في سبيله مناعة حصن ، ولا متانة جدار ، ولا ارتفاع أسوار ...

وحاصر البطل الشاب ماحول الصنم العظيم من جميع أطرافه ، وأطال الحصار حتى ضاقت نفوس أهل البد عليهم . واستيأسوا من الخلاص . والتقت أذرع الرماة في مرامي العروس كأنها ذراع رجل واحد ، ورموا سارية البدّ بحجر ضخم ، فانكسرت السارية وانحنت قامتها المرتفعة أمام منجنيق هائل . فتطير المقاتلون من السند بذلك وتشاءموا ، وخشوا أن يكون ذلك نذيراً بدوران الدائرة عليهم . فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن أبهاء البدّ ومضايقه وحملوا على المسلمين حملة المستأيس ، ووثبوا وثبة المضيق عليه حين يشتد به الأمر ، وتنسد عليه سبل النجاة ،

فيضرب على غير هدى لعله يلتمس مخرجاً من ضيق ، أو منفذاً من محبس ... فهجم عليهم ابن القاسم برجاله هجوم الواثق من النصر ، وردهم الى داخل الصنم محصورين لا يستطيعون خروجا الى الموت الذي ينتظرهم خارج البدّ ، ولا يقدرون على بقاء داخله مادامت الذخيرة محدودة ، والزاد بمقدار .

وكانت جدران البد من الضخامة وعلو السمت بحيث لا يصل إليها متسلق الا اذا صعد إليها على سلم منصوبة ، فأمر ابن القاسم بالسلاليم فنصبت . ولكن مَن يَصعد إليها ليلقى ضربة من عدو راصد داخل الصنم ، أو رَمْية من خاتل وراء الأسوار ؟

وهنا يستحضر المسلمون ماحدث في واقعة حصن بابليون بالفسطاط ، أيام الفتح العربي لمصر على يد عمرو ابن العاص . ألم يستعص ذلك الحصن العتيق الرصين على العرب الفاتحين ، فاذا بالزبير ابن العوام وقد أتى بسلم فصعد عليه ، حتى أوفى على الحصن من شاهق ، وهو مجرد سيفه حَذَرَ المباغت ، فكبَّر وكبر معه المسلمون تكبيرة رجل واحد ، ففتح الحصن عنوة ، وانقادت مقالده للعرب

بعد طول شماس ؟

نعم ! لقد كان في مُقاتلة المسلمين بالسند من يَذكر هذا الموقف لابن العوام في فتح مصر ، فلم لايكون هنا ابن عوام آخر ، ما دام الاسلام يصب رجاله على غرار كريم ؟ لقد نهض رجل من قبيلة مُراد من أهل الكوفة ، وفعل كما فعل ابن العوام في أرض الأهرام !

لقد كان هذا الفتى المرادي أول من صعد على السلم وتبعه الرجال ، ففتح حصن الصنم عنوة واستحرّ القتال ثلاثة أيام ، لم يذق المتحاربون فيها طعماً للشراب والطعام والمنام .

وما أُعجب التاريخ أحياناً حين يَنسى أسماء الرجال عن غير قصد ولا نية في إغفال ! فانه ضن على هذا الفتى المرادي السابق الى تسور الحصن بأن يذكر اسمه ، ولكنه اكتفى من ذلك برده الى قبيلته من بني مراد ... وما يبالي المجاهد حين يجاهد فيقتُل في سبيل الله أو يُقتل ، أن يُذكر اسمه أو يهمل ، أو يسجل اسمه أو يُغفل ، مادام أدى لله والضمير والواجب ماعليه من حقوق واجبة الأداء .

لقد سقطت مدينة الديبل وسقط معها صنماً الى حيث لا رجعة لأوثان ولا عبادة لأصنام . وكان ذلك في سنة ٨٩ من الهجرة . واستبد الخوف بوالي مدينة الديبل وعاملها السندي من قبل الملك ذاهر ، فأسلم ساقيه ممعناً في الهرب ، ملتمساً النجاة بنفسه . وأنزل ابن القاسم أربعة آلاف من رجاله في المدينة التي كانت بالأمس القريب واترة للمسلمين بخطف جماعة من نسائهم وهن في الطريق الى أمير العراق .

واختط محمد بن القاسم في المدينة المغلوبة على أمرها خططاً وأحياء للمسلمين ، لينزلها أربعة الآلاف من جنده النازلين . وأقام بها مسجداً يرتفع من مئذنته التكبير ، باسم الله العلي الكبير ، بعد أن سكنت أصوات الطواغيت .

ترك بطل السند حاميته القوية في مدينة الديبل ، بعد أن فتحها بالسيف عنوة ، وسار عنهـا الى مدينة البيرون ، وهي المدينة التي ينسب إليهـا الفيلسوف المؤرخ المسـلم أبو الريحان البيروني من علماء القرن الخامس الهجري .

ولـم يكدر ابن القاسم ، وهو في طريقه الى البيرون — أن أهلها كتبوا الى الحجاج في العراق مصالحين ، فإذا ببطلنا يقابل أهل هذه المدينة المسالمة وهم يخرجون اليـه بالميرة ويمدونه بالمعونة ، وفاءً بعهد مصالحتهم ، واذا بهم يفتحون له المدينة على ذراعيها ، فيدخلها ابن القاسم بـلا قتال ولا نزال . فيسير عنها بطل السند ، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها .

وآثر بعض أهل السند العافية على قتال لا يخرجون منه الا بكثرة المقتلة فيهم ، ووطأة الهزيمة عليهم ، ففضلوا المصالحة على الوقوف في معركة خاسرة . ومن هؤلاء أهل المدينة سربيدس ، فكانوا أعقل من أن يبادلوا بحرب لانهاية لها إلا الخسارة عليهم ،والنكال بهم، فصالحوا البطل الشاب

ووظف على مدينتهم الخراج . أما أهل مدينة سهبان فقد ركبوا رءوسهم ، فكان جزاؤهم أن فتحت بلدتهم عنـوة ، بعـد أن أعمل المسلمون فيهـم سيوفهم الظمأى الى ري الدماء ...

وقد أثمر الدرس القريب الذي ألقاه ابن القاسم على أهل سهبان ، فخرج منه أهل سدوستان بالعافية ، بعد أن طلبوا الأمان والصلح ، فأمنهم بطل السند وآمنهم من خوف ووظف عليهم خراجاً قبلوا أن يدفعوه عن يد وهم صاغرون .

كان عمـال ذاهر ملك السند وولاته على الأقاليـم يسقطون رجلا إثر رجل ، ولم يستطيعوا مغالبة هذا الشاب الجرىء الذي وفد الى بلادهم وحشو ثيابه همة لا تصدها عقبـات ولا أهوال . أما الملك ذاهر تمسه فكأنما كان في غفلة عما أصاب ملكه الذي بدأت تنهار قواعده ، لقد كان منصرفاً الى أمواله وجواريه فيما وراء نهر مهران ، وكأن ذلك الجيش العربي النازل على أرضه لايستحق منه أدنى التفات ، ولا أقـل اهتمام ، وكأن أنباء سقوط الديبل ، ومصالحة بيرون ، وفتح سهبان ، وتسليم سدوستان وايغال العرب الفاتحين في البلاد لم تصل الى مسمعه المشغول بأنغام

القيان ... أو كأنه سمع وَصك النبأ بعد النبأ أذنه ، ولكنه مستخف ، بالعرب مستصغر لأمرهم ، معتزم لقاءهم في موقعة تدور فيها الدائرة عليهم في حسبانه !

وعبر ابن القاسم نهر مهران فاذا بـه يلقى الملك ذاهر وهو على فيل مُطهم كأحسن ما تُطهم الجياد ، وعليه عُدة كأوفى ماتكونُ عدة الخيل ، وحوله الفيلة بركبانها ، تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، وتقيم من حوله الأسداد ، حتى لا يناله عدو ، ولا يظفر به محارب ، ولا يستهدف منـه مقتل لنبل نابل ، أو طعن طاعن ، فهم والفيلة الضخامُ بطانة للملك ، وسداد له من كل ثغر ينفتح عليه في معمعان القتال .

ورأت الخيل العربية هذه الفيلة الضخمة فنبضت بها كرائم عروقها ... ورأت الفيلة المهولة المفزعة هذه الخيلَ كأنها جن تحمل على صهواتها بشراً كالجن ، فجن جنونها ، وسمع من جماعتها صَني[1] غطى على تصهال الخيل ، حتى استحالت المعركة الى قطعة ترعد بالهزيم ...

واقتتل الجمعان قتالا لـم يُسمع بمثله كما يقـول المؤرخو . ولم تثبت الفيلةُ ولا فيالوها في مقام نزل فيـه

(1) الصني : صوت الفيلة .

مواطىء الأقدام ، وتتخلخل فيه السيقان ، وتنخلع له قلوب الشجعان . ورأى الملك المغلوب ذاهر أن ظهر الأرض أثبت من الفيل ظهراً ، فترجل والدروع تدفع عنـه من الضرب ما تقدر على دفعه ، الى أن سقط إعياءً فقتل بعد أن مالت شمس النهار الى غروب .

وكان مقتل الملك ذاهر بيد فارس عربي غضّ الإهاب، شديد البأس ، شجاع النفس ، خاض الصفوف غير مبـال بما هو مُقبل عليه ، وفرج الجموع غير عابىء بما قد يتعرض له . فلما جَندله بسيفه قال مفاخراً :

الخيل تشهد يوم ذاهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير مُعرد[1] ... حتى علوتُ عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا ... متعفر الخدين غير موسد...

وهنا لم يغفل التاريخ اسم قاتل الملك ذاهر ، كما أغفل اسم الفتى الجرىء الذي كان أول صاعد على السلم ليتسور حائط البدّ . فقد روى أحد المؤرخين ان اسمه القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائي .

وكان مقتـل ذاهر ملك السند إيـذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها ، وإعلاناً بأن مقاومة أهـل

(1) عرد الرجل الطريق اذا انحرف عنه .

البلاد غير مجدية ، بعد أن قتل ملكهم ، وتفرقت جموعهم .

ومضى بطل السند الشاب ممعناً في البلاد ، لا يصده حصن ، ولا تقف في طريقه عقبة ، ولا ترهبه فلول جيش مخذول ، فاتجه الى مدينة راور وكان الملك ذاهر قد اتخذها مرتعاً لإحدى نسائه ، ففتحها ابن القاسم عنوة ، بعد أن رفضت المصالحة . وأخذ الأمان ، وخافت امرأة ذاهر أن تقع أسيرة في يد العرب فأحرقت نفسها وجواريها وجميع ماتملكه منَ طائل المتاع ، وغزير الأموال ، ونفائس الألطاف.

على أن امرأة ذاهر لاتهمنا في هذا السياق الا على قدر ما يسمح به الخبر المروي ، فهي وقصة انتحارها بإحراق نفسها وجواريها لا تحمل للعرب مغمزاً لغامز ، ولا مطعناً لطاعن . فقد كان المسلمون الفاتحون أشد الغزاة حفاظاً على الحرمات ، وصيانة للاعراض ، وتصوناً مع النساء ، حتى كانت آدابهم في القتال ، وأخلاقهم في الحروب ، مما يصح أن يكون دستور المقاتلين على العصور ، مادام الله قد كتب على الناس أن لا تنزع نوازع القتال من نفوسهم ...

فلا حاجة لقائل أن يقول معتذراً من فعلة امرأة ذاهر

بأن ذلك الذي صنعته هو من عادات أهل الهند في قديم الزمان .

أما الذي يهمنا في قصة بطل السند والهند فهو قصة « سيتا » ابنة الملك ذاهر ، فقد أحبها ابن القاسم ، ولكنه ما تعلق منها بريبة ، ولا هم معها بما يهم به المحبون حين يُغطي الحب على أسماعهم وأبصارهم ... ولكنه صان كرامتها وعفتها كأكرم ماتصان بنات الملوك . إلا أن مصرع أبيها على يد رجل من رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها ، وملأ قلبها ، فخامرت مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد ، وشاركت في مريب الخطط بما لم يَدع مجالا لابن القاسم في تبرئتها من الخيانة لخطط الفتح ، فأرسلها أسيرة الى بلاط الأمويين حيث كان لها شأن مع بطل السند والهند سنعرفه عما قليل ...

لم تَقف ببطل السند غاية بعـد مقتل الملك ذاهر ، وكان على يقين أن بلاد السند لن يقف معقل فيها ، ولاحصن بها ، ولا مدينـة من مدائنها في طريق فتوحه ، وماذا يبقى لجماعة ـ مهما كان أمرها ـ بعد أن كانت جموعها تنهزم في كل لقاء أمام جيش غالب بإيمانه ، قـوي بيقينه ، خرج في الله غازياً ، ولدين الله داعياً ؟

مضى ابن القاسم في طريقه الى مدينة برهمنا باذ العتيقة، وكان لها في السند مكانة تاريخية مرموقة ، وقد جمع فيها المنهزمون من أهل السند ما بقى من فلولهم ليلاقوا بهـا البطل الذي تعوّد لقاء الجيوش لا لقاء الفلول ...

وقاتلهم ابن القاسم قتالا أزالهم عن مواقعهم ، وأفنى كثيراً منهم ، وخرب كثيراً من ديارهم .

وغادر البطلُ المدينـة العتيقة وهي أطلال متخربة ورسوم متداعية ، ومضى على وجهه من الغزو يُريد مدينة الرور ، وفي طريقه إليها لقي أهل مدينة ساوندى ، وقـد

صفرت أيديهم من السلاح والرماح وعدة القتال ، ورفعوها مطالبين بالأمان بعد الذي بلغهم من أبنـاء المدن السندية المتخربة بلدا عقب بلـد ... فأعطاهم ابن القاسم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، فنزلوا على الشرط راضين، ثم دخلوا كلهم في الاسلام بعد ذلك بقليل .

وأصبحت أرض السند بعد ذلك تدنو للبطـل ابن القاسم ويُطوى له بعيدها ... واذا هو عقب ذلك بمدينة بسمد ، فلم يرفع أهلهـا السيوف الا ليطووها في الأغماد ، طلباً للصلح الذي لم يبخل به عليهم .

وهنا كانت مدينة الرور على مرمى النبال من جيوش المسلمين ، وهي مشرفة على جبل من جبال السند ، والطريق إليها وعر ، والمرتقى اليها عسير ، فظل بطـل السند ضاربا عليها الحصار شهوراً ، الى أن صالحه أهلها فقبل منهـم الصلح ، ومضى الى مدينة السكة ففتحها ، ولم ينته بـه المطاف عندها ، وانما جاء الى نهر بياس فاجتازه في طريقـه الى الملتان .

ولقد كانت الملتان أحـد الأهداف العظام التي يرمي

إليها ابن القاسم من غارته على السند ، فهي مدينة كبيرة عتيقة ، ولها من التقديس عند أهل السند مايفوق مدينة الديبل ، ففيها البدّ العظيم أو الصنم الكبير ، الذي تُهدى اليه الأموال ، ويأتي الناس إليه من كل فج عميق ، وتهوي إليه الأفئدة ، يحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويتقربون بالقرابين إليه ، ويتزاحمون بالمناكب كأنهم في ساعة الحشر للعبادة فيه . وتزدحم ساحاته وأبهاؤه وحماه بالوفود التي لا ينقطع سيلها ، والحجيج الذي لا يسكت تدفقه . وقد بلغ من ضخامته ورحابته أن عدد سدنته والقائمين على خدمته بلغ ستة آلاف كاهن ، يقيمون فيه الليل والنهار ، ويستقبلون فيه القادم ، ويودعون المفارق ، ويقيمون فيه الشعائر والمناسك ، فهو مدينة في مدينة ، وهو بلد في بلد ...

جاء ابن القاسم الى مدينة الملتان بما تحمله من حاضرها وغابرها ، فقاتله أهلها فحاصرهم وشدد عليهم الحصار ، وظن أنه لن يطول بهم الأمد ، فستنفدُ ميرتهم من الطعام المخزون ، والماء المحفوظ ، وهناك سيلجئهم الجوع والعطش الى التسليم . ولكن الحصار طال الى أجل تأكد معه المسلمون أن الماء ليس مخزوناً عندهم ، والا لنفد من عهد

بعيد ، ولكنه يأتيهم داخل الحصن من قَطع من الماء يدخل المدينة من مكان مخبوء ... وهنا تظهر الخيانة من رجل من أهل البلاد ، فيدل المسلمين على قطع الماء فيمنعونه ، فيظمأ المحاصرون ، حتى ليبلغ الظمأ بهم حد اللهاث ، فلا يجدون مخرجا لهم مما هم فيه غير أن يسلموا ويلقوا بأيديهم وينزلوا على حكم البطل الجريء الذي قتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وأسر سدنة البد العظيم ، وهم ستة آلاف كما سلف القول .

ودخل الفاتحون غُرف المعبد في الصنم الكبير ، فإذا هم يصيبون هناك ذهباً كثيراً مما حمله زوار ذلك البدّ العتيق ، فتكدس على مر السنين ... وهنا أمرَ بطل السند أن يُجمع هذا الذهب في بيت طوله عشرة أذرع ، وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه من كوة في وسطه ، ومن هنا سميت الملتان : ثغر بيت الذهب ، تمييزاً لها من بقية الثغور .

وفي صباح يوم من الأيام القريبة من فتح الملتان والاستيلاء على بيت الذهب فيها ، كانت سفينة من سفن المسلمين تخفق شُرعُها في الهواء ، وتضرب مجاديفها في ماء بحر الهند ، متجهة نحو بحر فارس لتلقى بأوساقها في ثغر

البصـرة ، حيث يبلغ بها المطاف الى دار أمـير العراق : الحجاج بن يوسف .

ونظر الحجاج فيما حمل إليه من ثغر الملتان مما بعث به إليه بطل السند محمد بن القاسم ، فكان مائة وعشرين ألف درهم ... ونظر في النفقة على فتح ذلك الثغر فكان مجموعه ستين ألف درهم ... فقـال : ربحنا ستين ألفاً ، وأدركنا ثأرنا ، ورأس ذاهر ...

هدايا من السند

ظل بطل السند ــ محمد بن القاسم ــ بعد سـقوط الملتان سنة ٨٩ هـ الى ٩٥ هـ وهي السنة التي مات فيهـا الحجاج ــ أمير السند كلها لاينازعه فيها منازع ، ولا يقوم سلطان" بجانب سلطانه ، ولا تقضى الامور الا بكلمة منه ، ما عدا مدينة الكيرج التي كان ملكها يسمى دوهرا ، فقد بقيت في غير حكم العرب الفاتحين الى أن كان لها شأن مع محمد بن القاسم بعد وفاة الحجاج بقليل .

وكأنما كتب الله لبطل السند أن يَلقى بعض الهدوء ، يذوق طعم الراحة فيهذه السنوات الخمس بعد أن دانت له السند كلها بالطاعة ، وأقرت له بالفتح ، وسلمت عليـه بالإمارة .

وانسابت الأموال في يد البطل المغامر ، وأفاء الله عليه وعلى المسلمين من الخير ، وفتح لهم من الثراء ما استبد الملوك في جمعه ، وما جهد الكهان في تكديسه . وتفتحت كنوز السند أمام المسلمين بما تحمله من تاريخها الطويل .

وفتح ابن القاسم دار الإمارة في السند على مصراعيها يستقبل الوافدين ، ويكرم النازلين ، ويعطي عن سخاء فيه لا عن تساخ ، ويظهر أن الكرم طبيعة في نفوس بني ثقيف ، فقد رووا ان الحجاج كان يعطي بلا حساب ، وذكروا أنه كان يضع في كل ألف خوان في شهر رمضان ، وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة انفس .

واذا صح ما استظهرناه من كرم بني ثقيف فإن بطل السند جاء على غرارهم، ونسج على منوالهم، فقد أعطى حتى مدحه الشعراء بأجزال العطية ، قدر مامدحوه بصدق البلاء في المعارك ، وحسن الثبات في المواقف . فهذا أبو الجويرية الشاعر يمدحه فيقول :

قل للذين بواسط وبغيرها   ممن مسائله ترد وتنجح
السند ! انت السند إن أميرها   بحر يطم على العفاة ويطفح
ما زال يعطي قاعدا أو قائماً   حتى حسبت أبا عقيل يمزح

فهو يعطي على كل حالة : قاعداً أو قائماً ، كما كان هرم ابن سنان في الجاهلية يعطي على العلات ...

والشاعر أبو الجويرية في هذه الأبيات يغري أهل

مدينة واسط العراقية ، التي بناها الحجاج ـ ويغري أهل غيرها من المدن بأن يقصدوا بطل السند وأميرها محمد بن القاسم ، فهو بحر يفيض بالعطاء ، ويطم على معتفيه وقاصديه وما زال يعطي على اختلاف الحالات حتى حسبنا العطاء عنده ضرباً من المزاح ...

وليس لدينا من أخبار عطايا بطل السند للشعراء والمعتفين ماتطمئن إليه النفس ، فإن اخبار الرجل نادرة مبعثرة كما سبق الكلام ، وهي في جملتها لاتصور البطل من ناحية سخائه وعطائه ، كما أن ما قيل فيه من شعر المديح بالشجاعة والبسالة لاينهض له بفضل أو لايقوم له بجزاء . فلقد كان من حقه على شعراء عصره أن يطيلوا المديح فيه ، وأن يكثروا القول في فتحاته ، ولكن حظ الرجل مع المؤرخين كحظه مع الشعراء، فاذا كان نصيبه ونصيب سيرته من التاريخ ضئيلا قليلا ، فان نصيبه من شعر الشعراء أقل وأضأل ...

على أن أغرب ما قرأناه عن هدايا بطل السند من السند هو ذلك الخبر الذي ذكره أبو النعمان الانطاكي حيث قال : (كان الطريق فيما بين انطاكية والمصيصة مسبعة يتعرض للناس فيها الأسد ، فلما كان الوليد بن عبد الملك شكي

ذلك إليه ، فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس ، فنفع الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفي ، عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس ، فبعث الحجاج الى الوليد منها بما بعث من الأربعة آلاف) فابن القاسم يبعث آلاف الجواميس من السند الى الحجاج ، والحجاج يبعث منها أربعة آلاف الى أرض ذات سباع ، فتستحيل تلك المسبعة الى أرض زراعية ، تغل أطيب الثمرات ، ويبدلها الله من خوفها أمنا ...

ويُطرفُ بطل السند ويُغرب في هداياه كما أغرب وأطرف في فتوحه .. وهو هذه المرة يهدي الى الحجاج من بلاد السند فيلا ، فيُجاز به البطائح في سفينة ، ويُخرج في مَشرعةٍ نسبت اليه من ذلك الحين ، فقيل : مشرعة الفيل .

ومرة ثالثة نصادف بطل السند وهو يبعث الى الحجاج يهديه بَشرية مما أنبتته أرض السند ... انه يبعث اليه بجماعة من الزط السند ، فيبعث بهم الحجاج الى الشام ، ويأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بنقلهم الى انطاكية ...

الحق أن هدايا بطل السند من السند ثقيلات الأوزان

ضخام الأبدان ... حين توضع في الميزان . فأين هداياه من نفائس ملوك السند الخفيفات الحمل الغاليات الأثمان ؟؟!

فتح جديد

كان محمد بن القاسم في دار الإمارة الفخمة بالملتان حين جاءه البريد من العراق يحمل نبأ وفاة أمير العراق : الحجاج ابن يوسف الثقفي ، ابن عم بطلنا ، ومعوّده إقدام نفسه على المكاره في الحروب •

وجلس البطل يستمع من رسل العراق ونعاته أنباء الميتة التي مات عليها أمير العراق ومُسكنُ فتنته ، وواضع الأمور فيه على قرار مكين • قال أحدهم — والدمعة تخنقه — وكان صنيعة من صنائع الحجاج •

— لما حضرت الوفاة ابن عمك يا أمير السند وأيقن أنه صائر لا محالة الى الطريق التي لا يرجع منها سائر ، قال : أسندوني ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكرت الموت وكربه، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وأنشأ يقول :

إن ذنبي وزن السموات والار ض وظني بخالقي أن يُحابي

فلئن منّ بالرضا فهو ظني ولئن مر بالكتاب عذابي
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظ لم ربٌّ يُرجى لحسن المآب؟

فَحَبس البطل الشاب عبرة كادت تترقرق في عينه وقال :

— رحمك الله يا ابن العم ! ويا أمير العراق ! ان رحمة ربك وسعت كل شيء • إن البلاد التي فتحت بتدبير الحجاج ورأيه وإمداداته واشاراته من بخارى الى سمرقند ، ومن فرغانة الى السند ، لتشهد أن لا إله الا الله ، وأن محمدا رسوله ، وأنك يا ابن العم رفعت فيها للإسلام منارا ، وبنيت فيها لدين الله مساجد ، وأن مثلي ومثل قتيبة والمهلب هم الأداة التي نفذت تدبيرك ، واتبعت خططك ، وتابعت سديد رأيك ، حتى لقد قَبِل القائد المجاهد والفاتح العظيم قتيبة ابن مسلم سديد رأيك حين استخلف على جند المسلمين أخاه صالح بن مسلم فكتبت إليه تلومه وتُبصره قائلا: (إذا غزوت فكن في مقدم الناس واذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم) !

واسترجع المسلمون وجيوش الفتح في السند حين بلغهم نبأ وفاة الحجاج ، وأجمعوا أمرهم أن يمضوا في الغزو مع قائدهم بطل السند الى غايته ، حتى تذعن البلاد كلها لطاعة الدولة •

ودخل في نفس بطل السند شيء من الخوف والقلق على مركزه في إمارة السند بعد وفاة ابن عمه الحجاج ، فقد كان البطل كما أسلفنا ربيبه وصنع يديه • ولكن بطل السند كان يُبعد أسباب القلق عن نفسه بأن مثل الخليفة الوليد ابن عبد الملك في عقله ووزنه لأقدار الرجال لا ينتقص أجر عامل ، ولا يتخلى عن رجل فتح باسمه وبجيشه وبماله للامويين فتوحا لم تكن تخطر على بال •

ولقد ابتلي الوليدُ نفسه جهادَ بطل السند وعرف صدقه في الحرب وولاءه في الخدمة معرفة اليقين ، ففيم يخافُ ابنُ القاسم على مركزه ، وفيم يتسرب الى نفسه هم ووسواس ؟

أينتظر البطل الشاب قاعداً عن الغزو ، ممسكاً عن الجهاد ، حتى يأتيه عهد الخليفة الأموي وموثقه بأنه باق في إمارة السند بعد موت الحجاج سنده ودعامته ؟ لا ! انه لأكبر من أن يجزع لمثل هذا ، وماهو الا جندي من جنود المسلمين ، عاهد الله على الطاعة ، وواثقه على الجهاد ، فلا يضيره أن يكون قائداً أو مقودا وسيداً أو مسودا •

ألم تسبق لخالد بن الوليد سابقة في الطاعة حين ولي

الخلافة عمر بن الخطاب ، فكتب كتاباً بعزل خالد من إمارة جيش الشام وتولية ابن الجراح مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره الى ابن الجراح ، ولم يُذعه بين أفراد الجيش ، لئلا تهن قوتهم ، وتتفرق صفوفهم ، ومضى في المعركة الى نهايتها بالنصر للمسلمين ، فسلّم كتاب عمر بن الخطاب وسلم عليه تسليم الإمارة ؟ وأخذ موضعه من الجيش جندياً تحت قيادة القائد الجديد ؟

فلا يضير بطل السند بعد هذا أن يبقى في منصبه بالسند أو يعزل ، إنه سيمضي في الغزو الى النهاية التي كتبها الله للمجاهدين الصابرين ••• وخرج البطل في جيشه راجعاً الى مدينة الرور والبغرور ، وهما مما فتح الله به عليه قبلا ، فأعطى الناس الأعطيات ، وسمع الى الشكاوي ، نظر في أمور أهلها بما يوجبه العدل وتقتضي به المصلحة • ثم توجه من هنا الى مدينة البيلمان ، فلم يقاتله أهلها ثقة منهم بأن جند المسلمين هم الغالبون ، فأعطاهم ابن القاسم الطاعةَ والأمان • ومضى الى ثغر سرشت ، وهي مغزى أهل البصرة ، وقد اشتهر أهلها بقطع البحر ولَصِّ المسافرين ، كما كان أهل مدينة الديبل ، فطلبوا الامان فأمنهم على أن لا يقطعوا بحراً ، ولا يهاجموا ركباً •

سبحان الله ! هؤلاء القراصنة المنتشرون على ثغور بحر الهند ، كانوا يُخيفون الطريق ، ويقطعون البحار على على السفن الغادية والرائحة ، فلا يسلم منهم راكب ، ولا ينجو منهم عابر ، حتى لقد اعترف ملك ذاهر ــ كما قرأنا قبلا ــ أنه لا سلطان له عليهم ، ولا قبل له بهم ... ثم يجيء اليوم شاب عربي مسلم في السابعة عشرة أو فوقها بقليل ، فيحلُّ الأمن محل الخوف ، ويؤدب العصاة وقطّاع البحار، فيسود الهدوء ثغور بحر الهند وسواحله ، ولا تسمع بعد اليوم نبأة واحدة عن غارة على مركب ، أو سطو على سفين ... ؟

بقيت أمامَ بطل السند مدينة الكيرج ، وملكها دوهر ، وكان يعدل الملك ذاهرَ في الشهرة والسلطان ، فأتى محمد ابن القاسم المدينة غازياً ، حتى لاتبقى هذه المملكة شوكة في جنوب المسلمين ، فخرج الملك دوهر في ألوف من رجاله ، وهم على متون الأفيال الضخام ، كأنها قطع من السحاب الثقال الدواكن ، والنقع يُثارُ في الجو كثيفاً ، حتى لو ابتغت الخيل والفيلة عَنَقاً عليه لأمكن ... والسيوف تلمع في عجاجات الغبار الأسود كأنها كواكب تتهاوى في ظلمات ليل أليل ... وقاتل المسلمون قتالا شديداً كعهدهم في كل معركة

خاضوا غمراتها ، فانهزم العدو وهرب دوهر ملتمساً النجاة بنفسه بعد أن فنى جيشه . ولكن سيوف المسلمين لاحقته في مهربه ، لأنها سيوف كالدهر لا ملجأ منه ولا هرب . فقتل دوهرُ ملك الكيرج كما قتل ذاهر من قبله . وهنا هزت الحماسة قلب الشاعر الراجز ، فقال يُزهي بهذا النصر المبين ، والفتح العظيم :

نحن قتلنا ذاهراً ودوهراً والخيل تُردي منسراً فمنسرا

ومضى عام ٩٥ من الهجرة بما حمله من خير وشر ... مضى بوفاة الحجاج بعد مرض يقال إنه ألح عليه فتساقطت نفسه أنفسا ... ومضى بغزوة غزاها قتيبة بن مسلم حتى أمعن في أرض بكمشاهان أو بلاد الشاش ، ومضى بفتوح بطل السند للبيلمان وسرشت والكيرج ومقتل الملك دوهر كما سبق الحديث . وطلع عام ٩٦ من الهجرة بما لا يدري الناس ولا يعلمون ... لأن الليالي من الزمان حبالى ، يلدن والله وحده أعلم بما يلدن ... فالله وحده يعلم مافي الأرحام كما يعلم مافي مستكن الغيب ، وكما يعلم وحده ماتُخفي الصدور ...

جاء عام ٩٦ من الهجرة ، ومضى بطل السند يقطع الشهور الأولى منه في غزوات هنا ، وغارات هناك ، تمكيناً لقواعد العرب في البلاد الجديدة المفتوحة ، والتي لاتزال على حداثة عهد بالإسلام . وفيما هو يمكن لمراكزه ومراكز جنده في السند اذا بنعي الخليفة الوليد بن عبد الملك يأتيه في ليلة من ليالي النّصْف من جمادى الآخرة . فيجزع بطل السند لوفاته ، لأنه مكن له في إمارة السند عاماً آخر بعد وفاة ابن عمه الحجاج أمير العراق . ولأن الوليد بن عبد الملك كان باراً ببني ثقيف ، عطوفاً عليهم ، مصطنعاً لهم ، وخاصةً أهل بيت الحجاج من بني ثقيف ، وسنعرف عما قليل أسباب هذا البر من الوليد ببيت الحجاج عامة وبالحجاج خاصة .

والحق أن وفاة الوليد بن عبد الملك كانت سبباً لأن يجزع الناس لها ، ويحزنوا من أجلها . فلقد كانت سوقُ الجهاد قائمة في عصره ، فوق ماكانت قائمة في عصر سلفه وأبيه عبد الملك . ولم يكن للناس شغل في عهده غير الجهاد والفتح ، والبناء والتعمير ، حتى ليلقى الرجلُ من المسلمين أخاه في عهده فيسأله عن الفتوح والغزوات ، والأبنية

والعمارات ، على حين كان الناس في عهد أخيه وخلفه سليمان ابن عبدالملك يتلاقون فيسأل بعضهم بعضاً عن ألوان الطعام! لأن سليمان كان يحب ألوان المطاعم ... والناسُ على دين ملوكهم ... !

والحق أن جيوش المسلمين في عهد الوليد بن عبدالملك فعلت للإسلام مالا يقل عما فعلته جيوش الفاتحين في عهد عمر بن الخطاب . ففي عهده علتْ كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها حتى مُلئت قلوب الأمم والملوك رعباً وفزعاً . لاينامون على قرار ، ولا يصحون الا على هلع . فاذا ناموا أفزعتهم الأحلام بجيوش المسلمين ، واذا تنبهوا راعتهم جيوش الإسلام وهي تَسلُّ سيوفها ، وتكتسح الى النصر طريقها .

وكأنما كان النصر موكلا بالمسلمين في كل غارة اقتحموها ، فما دخلوا بلداً الا فتحوه ، ولا توجهوا الى قطر إلا أخذوه . وكان في عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون ، والمؤمنون بوعد الله وهو حق . فقتيبة بن مسلم يفتح بلاد الترك ، ويصل الى تخوم الصين ، حتى يخافه

ملكها فيرسل إليه الهدايا والتحف والمال الكثير ، يسترضيه ويستعطفه مع قوته وكثرة جنوده . ومَسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبدالملك يُمعن في بلاد الروم، ويجاهد بعسكر الشام حتى يبلغ القسطنطينية ، ويبني فيها مسجداً يعمره مَن آمن بالله واليوم الآخر ، فتمتلىء قلوب الفرنج من المسلمين رعباً ... وموسى بن نصير يجاهد في المغرب ، وينشر الاسلام في كل مرحلة من مراحل الغزو ، ويغزو رجاله جزيرة ميورقة من جزائر البحر المتوسط « البحر الأبيض المتوسط » ، ويبلغ رجاله طنجة ، ومنها تبدأ قصة الفتح العربي للأندلس على يد طارق بن زياد ... ومحمد بن القاسم نفسه يصل الى أعماق السند وأطرافها وثغورها ، فيزيل منها دول الأصنام والأوثان ، ويجعل فيها الكلمة لله الواحد الديان ... فعند بطل السند محمد بن القاسم للجزع على موت الخليفة الوليد بن عبد الملك أسباب وأسباب ...

في أعقاب موت الوليد

مات الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ من الهجرة كما سلف القول ، فكانت وفاته أشد على نفس بطل السند من وفاة الحجاج ابن عمه . لقد كان الحجاج أميراً على العراق ، وهو لا يعدو أن يكون عاملا من عمال أمير المؤمنين فما دام الخليفة راضيا عن ابن القاسم فانه مُوقن بأن عمله باق لايتغير ، ولئن مات الحجاج دعامة ابن القاسم وسنده ، ان الخليفة لقيه نعم السَّنَد لفتى مجاهد هو وأهله من بني ثقيف صنائع الأمويين . ولكن السَّنَد قد مات اليوم ، وجاء خليفة جديد ـ هو سليمان بن عبد الملك ـ يكره الحجاج وأهله ومن يمت اليه بماتّة ، قريبة أو بعيدة من الرحم ، ويتمنى بجدع الأنف لو خُلي بينه وبين بني ثقيف جميعاً .

فما سر هذه الكراهة والعداوة من الخليفة سليمان ابن عبد الملك ، للحجاج الذي شد الرحال الى رحاب ربه ، ولكل قائم وقاعد من أهل الحجاج ؟

لا بد للجواب عن هذا السؤال من الوقوف بعض الوقوف على حديث ولاية العهد من أيام مروان الخليفة الأموي الى من جاء بعده على الولاء ، وهم عبد الملك ، والوليد ، وسليمان . فان هذه الوقفة القصيرة مفتاح القضية التي نحن بصددها ، والتي نُكب بها بطل السند نكبة لم ير الراءون مثلها في الجحود والنكران ونسيان أعمال الأبطال .

كان مروان بن الحكم هو الخليفة الرابع من خلفاء الأمويين ، وقد جعلَ ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك أولا ، ثم لابنه الآخر عبد العزيز من بعده . وفي سنة ٨٥ وقبيل وفاة عبدالملك بن مروان بعام واحد، أراد هذا الخليفة أن يعزل أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويجعل مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك ، يريد بذلك نقل الخلافة من الأخ الى الابن . وكان في عبد الملك ميل" الى المشاورة في الأمور قبل المضي فيها ، حتى تنكشف له وجوه الرأي عما يمكن أن يمضي فيه . فاستشار فيذلك اثنين من خاصته وأهل الحظوة لديه والقربى عنده ، وهما قبيصة بن ذؤيب ، وروحُ بن زنباع ، فنهاه قبيصة عن عمل لاتُحمد مغبته ، ولا تؤمن

تهمة الغدر فيه ، وأقره روح بن زنباع وشجعه على خلع أخيه قائلا : لو خلعته ما انتطح فيه عنزان ... وفيما هو من التردد بين الإقدام والإحجام اذ جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز ... فقال لروْح : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه .

وبهذا حل الموتُ مشكلة أقلقت بال عبد الملك فاستراح ، وتخلص ــ على يد ملك الموت ــ من أخيه ، وعَهد بالخلافة الى ولديه الوليد أولا ، وسليمان من بعده . وكتب بالبيعة لهما عهداً بعث به الى الأمصار ، فبايع الناسُ كلهم إلا سعيدَ بن المسيب فامتنع ، وان كان ذلك لا يقدم ولا يؤخر في القضية التي نحن بسبيلها ... وجاء الوليد بعد أن جاءته الخلافة عقب وفاة أبيه عبد الملك ، فأراد أن يُعيد الذي عمله أبوه من قبله . وذلك بأن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، ويجعلها لولده هو عبد العزيز بن الوليد ... وبذلك تنتقل الخلافة من الأخ الى الابن . وجَهد الوليد لذلك جهده ، وأحكم خططه ، ودعا الناسَ الى ذلك ، فامتنع عليه أكثرهم ، ولم يجبه الى عزل أخيه سليمان الا الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق ، والقائد

الغازي قتيبة بن مسلم ، وبعض خاصته .

ولقد دخل جماعة من الشعراء في مسألة ولاية العهد لعبد العزيز بن الوليد ، فدعَوا له ، ورأوه أحق من عمه سليمان ، وحرضوا الخليفة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد . ومن هؤلاء جرير الشاعر الذي أكثر المدائح في عبد العزيز . ودعا الناس الى مبايعته فقال فيه :

إلى عبدالعزيز سمت عيون الر ... عية إن تخيّرت الرعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما ... عماد الملك خرّت والسماءُ
وقال أولو الحكومة من قريش ... علينا البيع إذ بلغ الغلاءُ
رأوا عبدالعزيز ولي عهد ... وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزحلفها[1] بأجمعها إليه ... أمير المؤمنين إذا تشاءُ
فإن الناس قد مدوا إليه ... أكفهم وقد برح الخفاءُ
ولو قد بايعوك ولي عهد ... لقام القسط واعتدل البناء

على أن جريراً كان موالياً لعبد العزيز بن الوليد قبل ظهور مسألة ولاية العهد ، وقد ظفر منه بأسنى الجوائز ،

(١) زحلفها : ادفعها .

وأكرم الصلات . وقد كان عبد العزيز لا يرد له مسألة ، ولا يُخيب قصداً ، حتى بدت عليه آثار عطاياه فقال فيه :

إلى عبدالعزيز شكوت جهداً ... من البيضاء[1] أو زمن القتاد
سنين مع الجراد تعرّقتنا ... فما تبقي السنون مع الجراد؟
ولولا فضل نائله علينا ... لما أحيا بنيّ ولا تلادي
سنشكر من له أثر علينا ... كآثار الولى على العهاد

فلما مات عبد العزيز رثاه جرير بقصيدة يقول منها :

نعوا عبد العزيز فقلت : هذا ... جليل الرزء والحدثُ الكبير
فبتنا لا تقرّ بطعم نوم ... ولا ليلٌ نكابده قصير ...
وأظلمت البلاد عليه حزناً ... وقلت : أفارق العمر المنير ؟؟

* * *

وأشار بعض الخاصة من ذوي التدبير على الخليفة الوليد أن لا يصل الى عزل أخيه سليمان عن طريق القوة والسلطان من ناحيته ، ولكن عن طريق استقدام سليمان والرغبة إليه في خلع نفسه من ولاية العهد ، والبيعة لابن أخيه عبد العزيز .

(١) السنة البيضاء : هي السنة المجدبة .

وقد كان في ذلك الحل حلٌ للمشكلة على وجه ليس فيه عنف ، ولكن فيه من إيحاء القوة ونعومة المدخل مالا يذهب ببشاعة العمل كلـه • فان سمةُ الغـدر في العزل لا تزال تطبع العمل ، سواءً أكان العزل إنزالاً من صاحب السلطان ، أم نزولا من صاحب الحق •••

وكتب الخليفة الوليدُ بن عبد الملك الى أخيه سليمان يستقدمه ليأخذ منه إقرار النزول عن ولاية العهد ، فاعتلّ سليمان أوأظهر العلة ••• فأراد الوليد أن يسير اليه بنفسه ، وأمر الناس بالتأهب ليسيروا معه ، للتعجيل بأخذ التنازل منه لابنه ، ولكن الموت ــ في هذه المرة أيضا ــ حال بـين الوليد وبين أمنيته ، فلم تتم محاولتهُ لعقد ولاية العهد لابنه عبد العزيز ، ومات الوليد •••

وانحلت مشكلة ولاية العهد هذه المرة أيضا على يد مَلك الموت الذي يحل ما استعصى من المشكلات ، لو كان الناس يتعظون ، أو يفتحون عيونهم وآذانهم عـلى العبر العظيمة ، والحكم البالغة التي تمر بهم ••• ولكن الله يقول، وهو أصدق القائلين : « حكمة بالغة فما تُغني النُذُر » •

وذهب الوليد الى جوار ربه بما كسب لنفسه من إثم وصالح ، وانتهى مابينه وبين الناس في الدنيا من صـراع

وخلاف ، ليبدأ ما بين أخيه سليمان الخليفة الجديد ، وبين الناس من أحقاد النفوس •

لقد كان سليمانُ حاقداً علىالذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد ، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي • وبات سليمان ــ قبل أن يلي الخلافة ــ لا يطيق اسم الحجاج ، ولا يطيق اسم واحد من أهله وخواصه ، بل لا يطيق اسم ثقيف كلها ، لأنها أخرجت هذا الرجل الـذي يُقر خليفته على الغدر بعهد أخيه ••• وكذلك كره سليمانُ بن عبد الملك القائد الفاتح قتيبةَ بن مسلم ، لأنه ذهب مع الحجاج فيما ذهب اليه من عزل سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ، حتى لقد خافه قتيبةُ حين صارت الخلافة اليه ، وامتنع عن المبايعة له ، وعزم عـلى خلعه من الخلافة وترك طاعته ، ودعا الجند والجيوش الى ذلك ، فسلط سليمانُ عليه ــ في وسط الجموع ــ من قتله وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته •

وكذلك كان مصرع القائد الفاتح المجاهد الذي أبلى في الله أحسن بلاء ، وهدى الله على يديه الى الاسلام خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، ولو لـم يعجل الموت الى الحجاج بن

يوسف قبل تولية سليمان الخلافة لما كان مصيره الا القتل ، كما قتل قتيبة ابن مسلم ، ولم يَرْعَ في الله بلاؤه ، ولا في الإسلام جهاده .

ومن هنا كان جَزَع بطل السند محمد بن القاسم على موت الخليفة الوليد ، ومن هنا كان خوفه من سليمان بن عبد الملك حين صارت الخلافة إليــه ، ودُعي له على منابر الإســلام ...

ولم يكن بطلُ السند مستندا في مخاوفه الى غير أساس فهو يعلم الدور الذي قام به الحجاج لإقصاء سليمان عـن الخلافة ، لولا أن الموت جاء بغير مايهوى الوليد وخاصته ، وهو يعلم أن سليمان لم ينس هذه الفعلة للحجاج حتى لقد كره أهل الحجاج جميعا من أجلها ، وكرهَ بني عقيل قومَ الحجاج ، بل كره ثقيفاً كلها ... وهو يعلم ـ فيما جاءه من الأنباء وهو بالسند ـ أن ابن عمه الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله ، فيقع الحجاج في يد سليمان ابن عبد الملك . لولا أن الله عجّل بوفاته قبل وفاة الوليد ، فمات مصوناً لم يلحقه سليمان بأذى ولا عذاب ، ولم يأمر بقتله كما قتل قتيبة بن مسلم ...

نعم ! لقد كان بطل السند يعلم ذلك كله من الخليفة

الجديد سليمان بن عبـد الملك . ولكن ماذا يصنع ليرضي هذا القلب المنطوي على حقد وكراهة ؟ إنه لم يسيء الى سليمان بن عبد الملك ، ولم يُشر على الوليد بعزله من ولاية العهد وإقصائه عن طريق الخلافة ، ولم يسهم فيما كان العراق آخذاً فيه من الفتن ... وانما كان بعيدا عن ذلك كلــه ، فكيف يَجني غيره ويُعذب هو ؟ والله يقــول : « ولا تزرُ وازرةٌ وزْرَ أخرى » ؟

إنه مُرابطٌ في السند التي فتحها بحد سيفه ، منتظرا أمر الخليفة الجديد ، فانه قائـد عسكري يعرف الطاعة ، ولا يخرج الى عصيان ، لأنه ليس لـه في السلطان رغبة ، وما به الى الإمارة اشتهاء ...

* * *

وجاءت أوامر الخليفة سليمان بما كان متوقعاً من مثله ، فعزل قتيبةَ بن مسلم عن إمارة العراق وخراسان ، وجعـل مكانه يزيد بن المهلب ، وبذلك رده الى إمرة خراسان بعد البعد عنها عشر سنين ... ثم أمر يزيد بن المهلب بمعاقبة

آل الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان الحجاج هو الـذي عزلَ يزيد عن خراسان ... ثم جاء أمرٌ جديد بعزل بطل السند محمد بن القاسم عن إمارة السند ، وتولية يزيد بن أبي كبشة مكانه . فكان ذلك العزل أول ما يلقـاه البطل المجاهد من أجر المجاهدين ...

البطـل المعزول

نحن الآن في العام الخامس والتسعين من الهجرة حينما جاء أمر عزل ابن القاسم عن إمارة السند بعد أن قضينا معه في فتوحاته بضع سنين ، تبدأ من السنة التاسعة والثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك . ولقد جاء يزيد بن أبي كبشة الى السند ، لافاتحاً ولاغازياً ، ولكنه جاء بكتاب من سليمان بتعيينه والياً على السند وعزل محمد بن القاسم ... ولقد كان بطل السند رجلا على الرغم من حداثة سنه ، حتى في الساعة التي يفقد فيها الرجالُ أسباب التصرف ، ويُضيعون أزمّة التدبير ...

لقد استقبل ابن القاسم الـوالي الجديد ، والأميرَ الذي عُين بدلا منه استقبال الرجل الهادىء ، والبطل الذي لا يبالي بحدث مهما اشتد ، ولا بخطب مهما جد ... وجاء الأمير الجديد في جلال الإمارة ، وعز السلطان ، وكان الدالة عند الخليفة سليمان . جاء في أبهة الإمرة الى رجل زالت الامارة عنه ، ولكن لم يزُل فضله ... جاء في موكب فخم

الى فتى تعطل من المواكب ، وتجرد من الحاشية ، وصفرت يداه من كل كلمة آمرة أو ناهية ... جاء وليس بينه وبين بطل السند من أسباب الحقد مايدعوه الى اتخاذ موقف التجهم له والسخط عليه . الا انه جاء متأثراً بحقد الخليفة وكراهيته ، فأراد أن يكون خليفياً أكثر من الخليفة ، أو كما يقولون اليوم ملكياً أكثر من الملك ...

وكل ذنب بطل السند حتى يُعزل ويلقى هذا الجزاء الجاحد ، أنه ابن عم الحجاج الذي كان الخليفة سليمان يحمل له في نفسه شيئاً ، لأنه أقر الوليد على عزله من ولاية العهد وتنحيته من طريق الخلافة . ولقد مات الحجاج ، وكان يُظن أن الموت سيزيل هنا أسباب العداوة ، ولكن سليمان كان غاضباً على بني عقيل قوم الحجاج كلهم ، لم يستثن منهم أحدا ...

وتحت تأثير هذا الشعور الذي يجاهر به الخليفة سليمان لقوم الحجاج جاء الوالي الجديد الى السند . فلنر ماذا كان موقفه من البطل المعزول .

أخذ يزيدُ بن أبي كبشة محمد بن القاسم في عنف لايليق بمثله ، ولا تستوجبه آثاره في البطولة العربية ،

ومواقفه في الفتوح ... أخذه مقيدا في الأغلال ، مشدوداً في الوثاق ، كما يؤخذ المجرمون بالنواصي والأقدام ... ووكّل به وهو في محابس القيد ، والحديد يعض بيديه ورجليه ، رجالا غلاظ الأكباد وحراساً قساة القلوب ، حملهم معه من العراق وعلى رأسهم معاوية بن المهلب لينجزوا له مهمة التكبيل والتغليل على أتم الوجوه قسوة ، وأشدها غلاظة وفظاعة .

ويروي المؤرخ ابن الأثير هنا أن محمد بن القاسم قال متمثلا :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

ولقد أحسن بطل السند في هذا المقام التمثيل بهذا البيت ، ولكنه لم يجد سميعاً ولا مجيباً ، كما سمع جارُ أبي حنيفة النعمان خير سميع وخير مجيب من أبي حنيفة ، حينما نزلت بهذا الجار محنة" في ظلمات ليل ...

فقد حدثوا أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مولع بالشراب يُحيى الليل شارباً ، ويحييه أبو حنيفة قائماً لله . وكان هذا الجار المدمن يغني بالليل ، كلما ثمل ، هذا البيت :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

فجاء العسس ليلة وأوقعوه في الحبس ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فعلم أن الشرطة حبسوه ، فكتب الى الوالي ، وتكلم في شأن العفو عنه ، فأطلق سراحه وسراح من أخذ في تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة . وعلم الرجل بيد أبي حنيفة عنده ، فأقبل عليه يشكره ، فقال له أبو حنيفة : هل أضعناك يافتى ؟ قال : لا والله ! ولكنك بررت وحفظت ...

أما سليمان بن عبد الملك فما بر ولا حفظ ، بل أضاع فتى مجاهدا جريئاً ، وبطلا فاتحاً مغواراً ، أخذ بذنب غيره ، وعُوقب بجريرة سواه ، فكان شأنه شأن القائل :

غيري جنى وأنا المعذب فيكم فكأني سبابة المتندم[1]

ويروي ابن الأثير أن أهل السند بكوا على محمد بن القاسم . وحق لهم أن يبكوا . فقد فتح بلادهم على نضارة من السن ، وطراءة من الشباب ، وكان في يده القيادة والسيادة ، والأمر والنهي ، والجاه والسطوة . فما اغتر بذلك كله ، ولا خدعه عن نفسه ولا عن ربه . لقد كان مثال المسلم الكامل : قوة في القلب أو شدة البأس ، ومبالغة في العدل ، وسعد في البذل ، وتحرياً للحق . ومن هنا علقت

(١) سبابة المتندم : هي أصبع الرجل النادم يعضها وهي لم تجن ذنباً ..

به النفوس ، وأحبته القلوب ، وبكاه جيشه الغالب ، كما بكاه القوم المغلوبون .

ولم يكد يفرح يزيد بن أبي كبشة والي السند الجديد بمنصبه ، ولم يكد يتهنأ بما صار إليه من إمارة دولة جديدة واسعة الأطراف ، ولم يكد يرقد الليل مسرورا في أوله حتى جاءه النذير بالأسحار .... فقد كان الموت راصدا له ، وكانت حبائل المنون تحكم له سداها ولحمتها ، فمات بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً . وأغلب الظن أنه لم يمت بين الضرب والطعن ميتة المقاتلين ...

* * *

ولم تخفّ لوعة أهل السند على محمد بن القاسم ، ولا بكاؤهم عليه ، ولا قلقهم للمصير الذي ينتظره في العراق أو في الشام أو في أية بقعة تكون فيها نهايته . وكأنهم قدموا البكاء عليه انتظاراً لما كانوا يتوقعونه من أمره ... فقد صار الى مصير لايتكافأ مع ما أسلف ، بل هو الجحود بعينه ،

والغدر بذاته . واحتفظ أهل السند والهند فيما احتفظوا به من تذكارات البطل العربي المغامر محمد بن القاسم بصورة له ، صوروها في مدينة الكيرج التي فتحها سنة ٩٥ ، والتي كان يملكها الملك دَوْهر ، فكانت أدل على مكانة بطل السند والهند في قلوب تلك البلاد .

الأسد الحبيس

كأنَّ الشاعر علي بن الجهم – وهو من شعراء القرن الثالث الهجري – كان يعبر أصدق تعبير عن محمد بن القاسم الثقفي بطل السند ، وهو يقول في قصيدته التي نظمها وهو في السجن :

قالت حبست فقلت ليس بضائر   حبسي وأيّ مهند لا يغمد

أو ما رأيت الليث يألف غيلهُ   كبراً وأوباش السباع تردد ؟

والشمس لولا أنها محجوبة   عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والحبس مالم تَغْشَه لدنيَّة   شنعاءَ نعم المنزل المتورد

بيت يجدد للكريم كرامة   ويُزار فيه ولا يزور، ويحفد.

ولعلك أدركت – أيها القارىء الكريم أن بطل السند قد اقتيد في الأغلال ليحبس ، ويضيق عليه في حريته كما يضيقُ على المجرمين من أصحاب الدنايا الشنعاء .

ولقد بلغنا في الحديث عن بطل السند مبلغَ القبض عليه وتوكيل معاوية بن المهلب به مع جماعة من أشداء

الحراس يسُوقونه الى العراق ، ويُسلمونه الى رجل شديد العداوة للحجاج ، كثير الموجدة عليه ، لأمر سنذكره فيما يجيء من القول ، ذلك الرجل هو صالح بن عبد الرحمن .

ولم يكن صالح بن عبد الرحمن والياً على العراق ، ولا نائباً لواليه حتى يَسلمه حراس بطل السند اليه . ولم يكن صالح حَرسيّاً ولا شرطياً ، ولم يك قواماً على سجون العراق يتولى أمرها ويديرشئونها . ولكنه كان عامل الخراج على العراق لسليمان بن عبد الملك . فلماذا اختاره سليمان ابن عبد الملك لمهمة القيام على محمد بن القاسم في سجنه ؟ وما العلاقة بين رجل يقوم على شئون الخراج ، ورجل عُزل عن قيادة جيوش السند ، وسيق مكبلا في أثقال الحديد ، لا يدري الى أين يساق ، وماذا يراد به ؟

لقد شهد بطل السند مدينة واسط وهو في طفولته المتأخرة وشبابه المبكر . ورأى فيها بيوتَ أهله من بني عقيل وهي تتدانى وتتراءى نارها[١] في حي خاص بهم ، يمتاز من بقية أحياء المدينة الناشئة النامية بجلال المظهر ، ونضرة النعيم ، وبسطة العيش ، وعرض الجاه . واليوم

(١) أي يتقارب بعضها من بعض .

يُساق الى واسط ، تلك الحاضرة الجميلة التي بناها ابن عمه الحجاج أمير العراق ، فيراها وقد تغيرت معالمها في ناظريه ، وتنكرت له ، وعلتها كآبة مُوحشة بعد أن كان البشر يبدو من كل ثنية فيها ، وكل طريق من طرقاتها ، ومنعطف من منعطفاتها .

لقد كانت واسط بالأمس غيرالبعيد تنفسح له رحابها ، وتنبسط له مضايقها ، واليوم يدخلها — أو يُدخله الحراس إليها — فتضيق في عينيه ضيقا لا يقوى عليه ، ويضيقُ صدره بها ضيقاً لم يعهده فيها من قبل . ولكن مدينة واسط في الحق لم تتغير ، وانما تغيرت الحالُ بمحمد بن القاسم ، فرآها كئيبة في عينيه وهي في الواقع غير ذلك ، ورآها موحشة في ناظريه وهي ليست هنالك ... ولو أنه عاد إليها في غير هذه الحال التي أعيد بها لرآها كما كانت ، وانظر مما كانت : قلبَ العراق النابض ، ومركزَ الحركة فيه ، ومجتمع الادارة والتنظيم والتوجيه ، ومدينة الحجاج التي بنى فيها قصراً للإمارة ، وأنفق عليه ألوف الألوف من الدراهم .

وأقام بطل السند — أو أريد له أن يقيم — في واسط سجيناً حبيساً ، بعد أن كان له في بلاد السند الأمر والنهي ،

والحول والطول ، والتصرف في الأمور كما يريد ، لايعارضه معارض ، ولا يناقضه مناقض •

ولقد أنطق الحبسُ الأليم شاعرية البطل المغوار ، وفي بني عقيل فصاحة وشاعرية كانت تجلوهما المواقف الجسام • ألم يكن الحجاج من خطباء العرب الذين كانت تسعى إليهم المنابر ، وتهتز أعوادها فتهتز منها قلوب السامعين ؟ ألم يكن يَرْق المنابر ، فيعظ وعظ العلماء وينزل عنها فيفتك فتك الجبارين ، كما قال عنه الحسن البصري ؟ ألم تحضرهُ الشاعرية وهو على فراش الموت ، في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فنظم أبياتا في التوبة والاستغفار ، وهو في اللحظة التي تضيع فيها بدائه الرجال ؟

نعم ! لقد نطق بطل السند وفتى ثقيف وهو في سجنه بواسط شعراً يقول فيه •

فلئن ثويت بواسط وبأرضها   رَهن الحديد مكبلا مغلولا
فلربَّ قينة فارس قد رُعتها   ولربَّ قرنٍ قد تركتُ قتيلا

لقد أحسن بطل السند الظن بالخليفة الأموي سليمان ابن عبد الملك حين تجب إساءة الظنون • ولكن الفتى الطيب

القلب معذور ومعذور • فما أذنب ، ولا اقترب جرماً ، ولا اكتسب إثما • وكل ذنبه أنه ابن عم الحجاج الذي كان عدو سليمان المبين •

ولو أن ابن القاسم رأى من وراء الغيث هذا الحبس الذي كان ينتظره حين جاءه نبأ وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية أخيه سليمان — لو أنه رأى ذلك المصير وقدره ، ما أسلم نفسه ليزيد بن أبي كبشة والي السند الجديد ، ولكان ركب الى الفرار ألف سبيل وسبيل • ويقول هو في ذلك شعراً منه :

ولو كنت أجمعت الفرار لوطئت   إناث أُعِدَّت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا   ولا كانَ من عكٍّ عليَّ أمير
وما كنت للعبد المزوني تابعاً   فيالك دهر بالكرام عثورُ !

وخيل السكاسك هي خيل الوالي الجديد وأمير السند يزيد بن أبي كبشة ، الذي ينتمي الى قبيلة السكاسك من كندة ، وهم من العرب اليمانية •

نعم ! كان يستطيع بطل السند الفرار لو أراده ، ولكنه — كما رأيناه في كل مواقعه — جندي لايعرف الهرب ولا يلتمس الفرار •

لقد كان مقداماً في كل مراحل حياته القصيرة قصر أعمار الورود ، فلماذا يفر فرار الجبان وهو واثق أنه بريء ؟

إن الأبطال يتقدمون على الموت في ساعة يتأخر فيها سرج الجبان ، ففيم الغضاضة اذن من السجن ولو كان طريقاً الى الموت ؟

* * *

ثأر قديم

قد يكون للخليفة سليمان بن عبد الملك بعض العذر في نقمته على قوم الحجاج جميعا لموقفه من ولايته للعهد ، وإغرائه الوليد بن عبد الملك بعزله من تلك الولاية ليفسح الطريق لولده عبد العزيز . ولو أنه ليس من العدل أن يؤخذ الأبرياء بذنب المسيء .

لقد روى ابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك استعمل يزيد بن المهلب على العراق ، وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج ، وأمره بقتل بني عقيل وبسط العذاب عليهم — وهم أهل الحجاج ، فكان يعذبهم ويلي عذابهم عبد الملك ابن المهلب .

والحجاج دائماً هو مركز الثارات حين يغضب الأمويون وأتباعهم وعمالهم على بني عقيل .

لقد وتر الحجاج الخليفة سليمان بن عبد الملك حين كان يدبر الأمور سراً وعلانية لخلعه من ولاية العهد . وهي ترة لم يطفئها موت الحجاج ، فظلت تتلظى على أهله وقومه .

فما هو شأن صالح بن عبد الرحمن بأهل الحجاج حتى يعذبهم هذا العذاب حين صار اليه أمر الخراج في أول عهد سليمان ؟

إن هناك ثأراً دفيناً بين الحجاج وبين صالح بن عبد الرحمن ، والعرب قوم لا ينسون التِّرات . وترجع أصول هذا الثأر الى أوائل عهد الحجاج بإمارة العراق .

لقد كانت حرب الخوارج على أشدها بالعراق ، حتى لقد هانت على هؤلاء القوم أرواحهم في سبيل فكرتهم التي نادوا بها ، وقاموا من أجلها . وحتى لم يشهد التاريخ صلابة واستمساكاً بالموت في سبيل الرأي كما شهده عند الخوارج. ولقد أقضَّ الخوارج مضاجع الأمويين ، فلم تذق عيونهم طعم النوم من شدة ما رأوه منهم .

وحمل الحجاجُ الناسَ على حرب الخوارج حملا ، ووكل بمناهضتهم المهلب بن أبي صفرة ، وهو رجل محارب قوي الشكيمة ، ماضي العزيمة ، سديد الرأي ، حسَن الاحتيال في الأمر ، يراوغ في الحرب ، ويحذر البغتات ، ويديم المراقبة ،

وكان لا يؤتى للحجاج بخارجي إلا قتله ، حتى لقد قتل منهم بيديه خلقاً كثيراً ...

وكان لصالح بن عبد الرحمن أخٌ اسمه آدم ، جرفته موجة الخوارج ، فسار في تيارهم ، ورأى رأيهم بعد أن فتن بفصاحة دعاتهم ، وأخذ بشدة بلائهم . فلما وقع آدم في يد الحجاج لقي منه المصير الذي كان يلقاه كل خارجي ، وهو القتل .

وكان حزن صالح بن عبد الرحمن على أخيه آدم شديداً ووجده عليه عظيما ، وموجدته على الحجاج مما لا تذهب الأيام بحدته . فهي كامنة في الصدور ، مستكنة في الضمير ، حتى يحين الاوان للانتقام .

ومات الحجاج قبيل وفاة الوليد بن عبد الملك وفي ظل حمايته ، فلم يدرك الموتورون منه ثأراً ، ولم ينالوا ترة ، فتحول السخط على الحجاج الى السخط على قومه وأهله ، وانتقل الحساب من قائمة أمير العراق الحجاج الى قوائم بني عقيل ...

ولم يكتف صالح بن عبد الرحمن بالثأر القديم بين الحجاج وبين أخيه القتيل آدم بن عبد الرحمن ليتخذه سبباً لتعذيب محمد بن القاسم الثقفي بطل السند وابن عم الحجاج إن بطل السند الآن حبيس في سجن ضيق مظلم من سجون واسط مع جماعة من بني عقيل ــ قوم الحجاج ــ يسامون العذاب كلما أجنّهم ليل ، أو أشرق عليهم من خلال قضبان السجن وميض من صباح . فلماذا لا يُقتل بطل السند على يد صالح بن عبد الرحمن ، كما قتل الحجاج بالأمس أخاه آدم بن عبد الرحمن ؟

ولكن بطل السند لم يقترف ذنباً يستحق عليه القتل بله السجن ، فما هو الذنب الذي يلصق به ، وما هي التهمة التي تُفترى عليه ، حتى يكون للقتل مستوجبا ، وللحكم عليه بالموت مستأهلا ؟

هنا ستنهض أحقاد الصدور لتشفي غليلها على حساب الأبرياء ...

فرية على الأبرياء

كان آخر عهدنا بالأميرة سيتا ابنة الملك ذاهر أنها حُملت أسيرة الى دمشق عاصمة الأمويين ، بعد أن استراب البطل محمد بن القاسم من أمرها ، ولاحظ عليها اتصالات خفية مع جماعة من أمراء السند المخلوعين المغلوبين على أمرهم، وخشي أن تكون الأميرة الشرقية السمراء قد خامرت مع قومها على العرب لتثأر منهم لأبيها المقتول ، ولبلادها المغلوبة ، ولأسرتها المنكوبة .

ولقد كانت الأميرة سيتا تُظهر للأمير العربي الشاب محمد بن القاسم قبل ترحيلها الى دمشق ماتحببت به إليه ، حتى شغفته حباً ، وكان يبدي لها من الاهتمام بها والعطف عليها والمودة لها ما شهدت به سماء السند وأرضها .

والحق أن ابنة الملك المقتول لم تتظاهر بحبها للأمير العربي بطل السند الا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة الى غرضها ، وسبباً لبلوغ أهدافها . فكانت تساره بالإشارة وتخافيه بلحن العبارة ، في لكنة سندية ، ولوثة غير عربية ،

لعلها تتلقف من بين شفتيه الكتومين خبرا يفيد المخامرين من قومها ، وينفع المتآمرين خفية من بني جنسها •

وحاولت سيتا أن تـُخفي شأنها قدرما وسعها الاخفاء ، حتى لا ينفضح أمرها ، أو ينكشف سرها ، فتبوء خطتها بالخيبة ، وتنقلب أمورها الى أسوأ منقلب •

ولكن بصيرة القائد الشاب كانت أهدى من الشمس حين تجد فيها الابصار هداية الى معالم الطريق ، فأدرك من نظراتها ماتخفي سريرتها ، ورأى في عينيها دليلا على خبايا فؤادها ، ورابه من أمرها أنها كانت تخرج في الليالي المتشحة بالسواد ، تطأ الثرى في رفق ، وتتسلل بين الشجر في حذر ، وتصلُ الخطى في نفَس مكتوم ، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها هم ثقيل •••

وذات ليلة خرجت سيتا كعادتها ، وكان ابن القاسم قد بث لها من الأرصاد من يتابعون خطوها ، ويقفون على جلية أمرها • فسُمِّرت عيونهم المتفتحة على شبحها المجلل بسواد الليل ، وظلوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم ، ولا يحيد عن مسيرها مسيرهم ، الى أن رأوها تلاقي ثلاثة من الرجال لقاء خفيفا سريعا ، امتدت فيه يدها بشيء وامتدت

فيه يد أحدهم يتلقف ذلك الشيء على حذر ، ثم مضى الثلاثة ممعنين في سير حثيث يدنو من الجري ، وعادت الفتاة أدراجها ، وهي موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهدها • وأنها آمنة في كنف الظلام الحالك ، من أن تأخذها عيون المتطلعين ، وأبصار المتجسسين •••

وعاد عيون ابن القاسم ينبئونه بما رأوا ، ويخبرونه بأمر الفتاة المريبة التي تتخذ من ملاءة الليل الأسود سترا لخططها السود ••• واستدعاها ابن القاسم ، وأخذ معها في الحديث وأعطى ، وأبدأ وأعاد ، الى أن استيقن أن الأميرة ممائلة ، وأن العطف الذي أبداه نحوها كان في غير موضع ، وأن الحب الذي كانت تتظاهر به كان سترا لأخبث الأهداف وأن رغبة الثأر لأبيها تتحرق في قلبها ، فود لو أن أدب الحرب في الاسلام كان يُجيز قتل امرأة ! اذن لتخلص منها بأيسر طريق كما يُتخلص من الجواسيس • ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة الى عاصمة الخلافة في دمشق ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا •••

ومضت بضعة أعوام على الأميرة الأسيرة سيتا ، قضتها

في دمشق وحيدة بعيدة عن أرضها ، ولكنها لم تكن غير واحدة من هؤلاء الموالي والجواري الذين كان الولاة والعمال يُهدونهم الى بلاط الخليفة . ولقد كانت سيتا أول أمرها مولاة في بلاط الوليد ، ثم أهداها الى واحد من أسرته . واختلفت عليها في خلال بضع السنوات من الحوادث مالا شأن لنا به ، مما لايتصل بتاريخ ابن القاسم في قليل أو كثيرة .

وما يهمنا هنا أن نعرض من تاريخ حياتها في دمشق مالا يهتم به التاريخ ، الا أننا نذكر أنها كانت وصيفة في قصور الأمراء من بني أمية ، لعلها كانت تحسن من أمور الخدمة في القصور ما تلقته في قصور أبيها الملك ذاهر ، أو لعل نشأتها في بيت ملك كانت تـُعينها على اجادة التنشئة في بيوت الأمراء ، أو لعل من الكرامة والإكرام لابنة ملك مغلوب مقتول أن لا تعامل معاملة الرقيق .

ولقد بلغ آخر المطاف بها في خدمة القصور لرجال بني أمية أن خدمت في دار لرجل من رجال سليمان بن عبدالملك الذين اتصلوا به قبل أن تصير اليه الخلافة ، فلما استقرت

له دعائمها بعد مسألة ولاية العهد أدناه اليه ، ورفع مكانه عنده ، وأناله الحظوة لديه . ولعل سيتا الأميرة السندية لم تكن في دار أحد من أمراء بني أسعد حالا مما كانت في دار الشيخ صفوان ...

* * *

وقضى صالح بن عبد الرحمن في مدينة واسط شهورا يضع فيها أصول الخراج للدولة الاموية على أساس يـُرضى عنه سليمان بعد أن بلغت النفقات في عهد الوليد بن عبدالملك حداً كادت تنوء به موارد الدولة ، ولعل صالحا لم ينشغل بأمر الخراج أكثر مما انشغل بأمر بني عقيل — وعلى رأسهم محمد بن القاسم بطل السند — الذين وكل به سليمان بن عبد الملك أمر تعذيبهم والقيامة عليهم في سجنهم في مدينة واسط ... لقد كان يفكر في وسيلة يخلـّص بها جملة من بني عقيل قوم الحجاج الذي قتل أخاه آدم في فتن الخوارج وأضحى بذلك واتراً له ، وركز أطراف حقده على بني عقيل في البطل الشاب محمد بن القاسم . فماذا يصنع ليتخلص منه ومن بقية قومه بالقتل الذريع ؟

لقد كان لبطل السند في قلوب المسلمين محبة لا ينزعها نازع ، فأحبه أهل السند حباً يدنو من تقديس آلهتهم الأقدمين ، وصنعوا له صورة في مدينة الكيرج ، كما يصنع الناس بالتماثيل حين يقيمونها للأبطال وعظماء الرجال تخليدا لذكرهم . وأحبه الجنود المقاتلون من رجاله حباً امتزج بالطاعة التامة كما امتزج بدمائهم . وبكاه هؤلاء وهؤلاء حين جاءه الأمر مع والي السند الجديد بالعزل ، وحين قيده هذا الوالي وساقه في حرس شديد الى العراق لينظر في أمره .

وفوق هذا أحبه المسلمون في العراق والشام، وأخذتهم من أبناء شجاعته وبسالته وبطولته ماجعلهم يتحدثون باسمه كما كان يتحدث الأقدمون بأبطال الأساطير ...

وما سجلت السنوات الست التي قضاها ابن القاسم في السند فاتحا غازياً مجاهدا في سبيل الله ، ضارباً بسيف الله أعناق الكفر ، ومحطما رءوس الشرك ــ ماسجلت عليه عيباً واحداً ، أو نقيصة واحدة يؤخذ بها ، ويستحق العقاب من أجلها .

لقد كان أميناً على أموال المسلمين وأرواحهم ، حريصاً على أعراضهم ، كما كان حريصا على أعراض أهل البلاد المفتوحة فما استحل فيها حرمة ، ولا هتك ستراً ، ولا أباح معصية . وكان في سلوكه نفسه ، وفي سيرته الشخصية ماكان أحسن المثل لقومه العرب ، حتى اطمأن أهل السند الى المسلمين ، وألقوا إليهم السلام ، ورضوا بالإقامة في كنفهم ، لأنهم رأوا فيهم من العدل مالم يجدوه ، ودخلوا في الإسلام راضين لم يُرغمهم سيف ، ولم يكرههم عليه عسف . وحسُن إسلامهم الى يومنا هذا ، فكسب بهم دين البيّنة أرضا واسعة ، وقلوبا عامرة ، وعددا كاثراً اذا عُد عليه الحصى يتخلف ...

فماذا يصنع صالح بن عبد الرحمن إذن ليأخذ الوتْر من الحجاج الذي مات وشبع موتاً ؟ ماذا يصنع ليثأر لمقتل أخيه آدم بن عبد الرحمن من شاب بريء ، ذنبه أنه قريب للحجاج فقط ؟ وهل كانت القرابة غرماً يحتمل فيه الأقارب المغارم دون أن يكون لهم وزر ، أو يقع منهم إصر ؟ ان الله يقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » . فكيف

يصح في مشارع العقل وموارد الطبع أن يُلزم انسان برىء طائرَ غيره ، ويتحمل تبعات سواه ؟

ألا يصح لبطل السند حينئذ أن يتمثل بقول الشاعر الجاهلي: لم أكن من جناتها ــ علم الله ــ وإني بحرّها اليوم صالي!

سمع صالح بن عبد الرحمن ــ وهو في قصر الخراج بمدينة واسط ــ أن في دمشق فتاة من السند تتسم بسمات الإمارة ، وتنتسب الى الملوك من السند . فأبوها ذاهر الذي قتله جيش محمد بن القاسم في فتح مهران . فلماذا لا تكون هذه الفتاة بداية الخيط الذي يصل به صالح الى مأربه من قتل بطل السند محمد بن القاسم : ابن عم الحجاج ؟

* * *

وفَد صالح بن عبد الرحمن على عاصمة الأمويين ليعرض على أنظار الخليفة سليمان بن عبد الملك جرائد الخراج في العراق بعد أن ولاه الخليفة أمره . والحق أنه كان يُعد في حقيبته لهذه الرحلة التي جاز بها العراق الى الشام شيئاً ، ويُبت أمرا لبطل السند محمد بن القاسم .

وكان ركب صالح الى الشام فيه من الحرس والجند مايليق بمقام عامل الخراج ، وهو الرجل الذي يجمع للدولة مالها، يلم لها أطراف ثروتها ، مما يعينها على التعمير والانشاء والغزو ، والنفقة على الجيوش ، ومظاهر الترف التي أخذت بعد ذلك تزداد في العصر العباسي .

وصالح بن عبد الرحمن هذا رجل من طراز عجيب ، فهو اذن يتسمع الأخبار ويتلقفها من أي فم ، ويأخذها عن أية شفة ، ويتقرب الى الخلافة بهذه الصفة التي أدنت محله منها .

وأخذت المطايا تخب وتضع في طريقها الى حاضرة بني

أميـة ، وتقف في مراحل الطريق ، تتزود بالمـاء والطعام ، وترتاح من مشقة الطريق ، وطول الرحلة .

وكان صالح يتبسط الى حراسه في الحديث ، لعلهم يفضون اليه بما يود أن يعرف من صغير الشئون وكبيرها ، وتافهها وجليلها . وفي يوم من أيام الرحلة جاءت النوبة على حارس من حراسه يقص على الركب وصاحبه أغرب ماشاهده في حياته . فذكر الحارس أنه كان مـن جنود الغزوة التي بَعثَ بها الحجاجُ الى ثغر السند ، وأنه رأى في هذه البلاد التي تركب الأفيـال وتحارب عليهـا ، غرائب لا ينقضـي منها عجب .

وكأنما سَقط صالح بن عبد الرحمن على ضالة كان ينشدها ، فلعل الرجل تخرج من بين شفتيه كلمة تعينه على إنجـاح المؤامرة التي أضناه التفكير في حَوْك خيوطها . وأقبل صالح بجملته على الحارس يصغي إليه ، وكأن كل عضو من أعضاء جسمه أذن تتسمع ...

وتوقع صالح أن يُذكر محمد بن القاسم بما يتحرق الى شفاء غلته منه ، فما وجد الا لسان صدق، وشهادة خير.

قال له صالح : وكيف كانت سيرة ابن القاسم بينكم ، وخطته فيكم ؟ فأجاب الرجل :

ـ كان والله المثل الأعلى في سيرته وخطته ، حتى لقد ودّ كل واحد من جنده أن يكون مصبوبا على قالبه . فهو يعطف على الصغير منا ، ويوقر الكبير فينا ، ويأخذ نفسه في السلوك بما يأخذ به المسلم المتصوّن نفسه ، فلا جورَ ولا طمع ، ولا صَلَف ولا غرور ، ولا فسق ولا فجور .

ـ ولكنه ابن عم الحجاج الذي فجر في العراق ، وأطال الله الطّول له الى أن أخـذه وأراح العباد منه . ثـم جاء الخليفة سليمان ، وهو أحق الناس بالخلافة علينا ، والولاية فينا ، حتى قال الناس فيه هذا القول المأثور : سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، وولي سليمان . أفلا كان فيه بعض ماكان في ابن عمه من فجور ؟

ـ والله يا ابن عبد الرحمن ما عهدنا على الرجل من سوء، ولا عرفنا فيه مذمة نأخذها عليه ، ونعيبها منه . وليس بحتم أن يكون الرجل كابن عمه . فقد يختلف الأخوان في الطبع والأصل واحد ، والأب واحد ، والأم واحدة . وقد

يلد الحرّان غير نجيب ... وقد يخرج الخبث من الفضة الخالصة ، كما قد يخرجُ الخبيث من الطيب . وقد يكون للحجاج من العيوب ما يؤاخذه عليها المؤاخذ ، بعد أن سفك من دماء المسلمين ماسفك ، وأزهق من الأرواح ما أزهق . وهذه خطبته بالكوفة حين دخلها فخطب الناس بغتة ، وهددهم وأوعدهم ، حتى خافوه مخافة شديدة ، وكأن الله ابتلى أهل العراق بهذا الرجل ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . فقل في الحجاج ماشئت ! أما ابن عمه محمد بن القاسم فلم يكن والله في شيء من ذلك كله ... لقد كنا نخشى أن تغره الإمارة ، وحداثة السن ، ومكان القيادة ، ووفرة المال ، وملازمة التوفيق ، فوالله ما اغتر ، ولا تكبر ، ولا زادته الانتصارات الا تواضعا ، كالشمس تعلو في كبد السماء ، ويدنو شعاعها وضوؤها .

ـ كأنك تحدثني عن ابن القاسم بينكم ، فهلا حدثتني عنه مع أهل السند التي فتحها ؟

ـ إن الحديث عن ابن القاسم يشرّفه من حيث نظرت اليه ، كالبدر من حيث التفت اليه يهدي الى العين نوراً

ساطعاً ، وضياء لامعاً ... لقد كان والله كريما مع سيتا كرما لا يليق بما صنعت ؟

ـ ومن سيتا هذه التي أكرمها الغلام الثاني من غلمان بني ثقيف ؟

ـ أتسألني عن سيتا التي سار بذكرها الركبان ؟ إنها أميرة من أميرات السند ، وقف أبوها في وجه المسلمين الفاتحين فقتلته جيوش محمد بن القاسم . وقد رق البطل الشاب لما آلت إليه أمورها بعد مقتل والدها . فأكرمها ورعاها صونا لبنات الملوك أن تبتذل حياتهن . ولكنها لم تكن أهلا لرعاية البطل الفاتح وعنايته ، وكان أيسر جزائها على نية الممالأة مع جماعة من قومها أن يقطع رأسها .. فقد كانت تتجسس على محمد بن القاسم وهي في كنف رعايته ، وتتعقب أخباره وأخبار خططه ، وهو مطمئن غير مضمر سوء ظن ، الى أن انكشف له من أمرها ما كانت تستره وتبالغ في كتمانه فأرسلها أسيرة الى العراق، حيث بعث بها أمير العراق الى بلاط دمشق . وهناك تنقلت بها المصائر من قصر الى قصر، ومن دار الى دار ، حتى انتهى آخر الأمر الى دار الشيخ

صفوان ، صفى الخليفة سليمان بن عبد الملك من قبل أن تصير إليه الخلافة .

* * *

كان صالح بن عبد الرحمن يصغي الى هذا القسم من حديث الحارس الذي في ركبه إصغاء بالغاً ، حتى كأنه كان يلتهم كل كلمة منه ، ثم هز رأسه هزة الذي وجد حلاً ، أو انتهى الى قرار ، وقال :

ـ وهي الآن في دار الشيخ صفوان ...

في دار صفوان

بلغ ركبُ صالح بن عبد الرحمن عامل خراج بني أمية على العراق أرباض عاصمة الأمويين ، وقد بدت على مرمى النظر شواهق الأبنية والمصانع التي جدّ بنو أمية في تشييدها وخاصة الخليفة البنّاء المعمر الوليد بن عبد الملك ، الذي كان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، كما كانوا يسألون في عهد الخليفة التقى الورع عمر بن عبد العزيز أيّ وردٍ قرءوا ، وكم حفظوا من القرآن ، وكم قاموا من الشهر ؟

وبدت للركب الذي كان حديث عهد بدمشق في عصر الوليد قبة الرصاص بالجامع الأموي التي وصفها الرحالة ابن جبير بعد ذلك بزمان طويل فقال : إنها من أعظم ماشاهده من مناظر الدنيا الغريبة ، وهياكلها الهائلة البنيان . وعجب ابن جبير فوق ذلك من الحجارة التي في جدر المسجد ، والتي يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة ، ولا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها (فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة) .

ولو أن ركب صالح بن عبد الرحمن تأخر بـه الزمان أربعة قرون أو تزيد قليلا . لما سمع في وصف الجامع الأموي بدمشق ـ الذي بناه الوليد بن عبد الملك ـ أجمل ولا أدق مما وصفه به الشاعر العربي الفارسي أسامة بن منقذ الكناني حيث قال :

وكأن جامعها البديع بناؤه   ملك يمير من المساجد جحفلا
ذوقيـة رُفعت فضاهت قنة   ومنابر بنيت فحالت معقـلا
تبـدو الأهلة في أعاليها كما   يبـدو الهلال تعاليا وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً   يعلو جـداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله   فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص فانبرى   بالفص يعلو والنضار مجللا
فإذا تذرُّ الشمس فيه تخاله   يلقاً[1] تألق، أوحريقاً مشعلا
فكأنما محرابه مـن سندس   أو لؤلؤ وزمرد قـد فصّلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت   منـه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما   تبدو العرائس بالحلي لتجتلى
وعلت بـه فوارة من فضة   سالت فظنوها معيناً سلسلا

وتفرق ركب صالح في دمشق ، ومضى كل على وجهه

(1) اليلق : البياض الشديد .

حتى يقضي صالح المهمة التي جاء من أجلها . وهم لا يعلمون أكثر من أنه جاء لشأن من شئون الخراج الذي ولي أمره ، ولا يدرون شيئاً مما يدور في باله حول محمد بن القاسم ، وما يُعد له في حقيبته ...

ومضى صالح بن عبدالرحمن الى دار الشيخ صفوان ، وهو صديق قديم له ، وقد التقيا في حب الخليفة سليمان بن عبد الملك قبل أن تصير الأمور إليه . فسلم كل منهما على صاحبه ، ورحب المضيف بضيفه ، وفرح لرؤية صديق قديم ، وأخذ كل واحد منهما يسأل صاحبه عن طائفة من المسائل ، مما يخوض الصحاب القدامى فيها حين يلتقون ويتدانى بعيدهم .

وأراد الضيف صالح بن عبد الرحمن أن يستطلع أمر الوصيفة السندية سيتا التي بلغه في آخر مراحل رحلته أنها نازلة بدار صفوان التي هو الآن في رحابها ...

ولا يعدم المرء ذو الحاجة أن يجد سبلا كثيرة يستطلع بها طلع الشيء الذي يريده ، فصالح بن عبد الرحمن عامل على خراج البصرة ، والبصرة ثغر لا تنقطع السفن بينه وبين ثغور السند التي فتح الله بها على المسلمين . فلم لا يأخذ

الحديث بعضه برقاب بعض ، حتى يصل الى قصة فتح السند من أولها ، أو الى قصة محمد بن القاسم فيها ، والى قصة العذاب والسجن الذي وكل به صالح بن عبدالرحمن نفسه ؟

وكان من طبائع الأشياء ومساق الحديث أن تُذكر الأميرة سيتا في مجال الحديث عن بلادها ، وأبيها الملك ذاهر المقتول ، وفتح المسلمين لهذه الأرض الشاسعة .

واستدعى الشيخ صفوان الوصيفة السندية سيتا ليراها الضيف الوافد من العراق صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج على البصرة . فدخلت وقد تغيرت ثيابها ، وتغيرت لكنتها السندية التي كانت في لسانها منذ بضع سنوات ، فهي تجيد الكلام في لسان عربي مبين . ولو أن صالح بن عبد الرحمن قد رآها يوم مقتل والدها ورآها اليوم لما أدرك تغيراً في سحنتها الا بمقدار ما يُغيره مَرُّ بضع سنوات من عمر الانسان ... فهي لا تزال سمراء ، ولا تزال عيناها تفتحان وتغمضان على أعمق الأسرار ... وما زال صالح يثير فيها بالأسئلة كوامن حزن قديم عميق . فتارة يذكرها - أو يدعوها الى تذكر - ماضيها في قصر والدها الملك ذاهر حيث نشأت وعلى وجهها نضرة النعيم ، وحيث كان الجواري في قصر ذاهر يقبّلن مواطىء أقدامها ، وحيث

كانت الدنيا كلها في يديها ، فلها ماتمنت ، وعلى الأقدار أن تجيب ...

وتارة يذكّرها - أو يحملها على أن تذكر - أحاديث الفتح ، حيث لقي أبوها مصرعه على يد رجل مسلم وهو يدافع عن حماه .

وتارة يذكّرها بالأسر الذي وقعت فيه ، والمصير الذي صارت إليه منذ أن بعث بها محمد بن القاسم أسيرة الى بلاط الأمويين . وسألها صالح بن عبد الرحمن عما بقي لها في بلاد السند بعد أن قتل أبوها وضاع ملكه ، وتهاوى التاج من فوق رأسه ؟ فأجابت :

- لقد خطبني في السند - قبل أحداث الفتح العربي بقليل - أمير من أشرف أمراء السند نسباً . وأكرمهم محتداً وكنت أحلم بالسعادة في قربه ، وأتعجل دورة الزمان لأصير ملك يديه . ودار الزمن دورة قصيرة من دوراته ، ولكنها كانت محملة بما لم يكن في حسباننا ، فمات أبي الملك ذاهر قتيلا في معركة الفتح العربي وزال الملك الذي كنا نمرح في أفيائه ، وراح الحبيب الذي كنت أرجو وصاله ... ولا أدري أين راح . ولا أيان دارت به عجلة الأيام ! وهأنذا الآن هنا بعيدة عن الوطن المنكوب ، فلا أهل ولا مال

ولا حبيب . فمن يردني الى أرضي التي افتقدتها ، والى أهلي الذين ضربت بيني وبينهم الأيام بالأسداد والأسوار واللجج ؟

ـ إن صديقي صفوان قد تؤلمه شكواك كما آلمتني ، ولعلي أنا الذي هيجت لك الجرح الذي يُدمي قلبك ، ولعلها أول مرة يستمع فيها صفوان الى مثل هذا الحديث الموجع ... وأنا ضمين لك عند هذا الشيخ ذي المروءة أن يعتقك ويُعين على ردك سالمة الى بلادك البعيدة ، حيث قد تصادفك فيها عجائب المقدور بالأهل الذين تتوقين إليهم ، وبالخاطب الذي لا تعلمين ما أصارته إليه الأمور . ولكن لي عندك شيئاً واحداً فيه خلاصك وعودتك الى وطنك .

ـ أرجو أن يكون في طاقتي بلوغ ماتريد .

ـ لن يكلفك ذلك شيئاً ، فما هي إلا كلمة من بين شفتيك يتقرر فيها مصير محمد بن قاسم عدوك وعدو أبيك من قبل ...

ـ آه من ابن القاسم أيها السيد الكريم ! لقد وترني بالأسر ، ووتر أبي بالقتل ، ووتر السند كلها بالفتح ..! ولقد نسيت السند الآن ترات الفتوح والغزو بعد أن دخلوا في الاسلام، ودانوا بالطاعة ، ونزلوا على إرادة الفاتحين ...

أما ترة قتل أبي وترة أسري فأرجو أن لا تطول بي الأيام حتى آخذ بهما .

ـ وهل تضمرين العداوة لابن القاسم الى هذا الحد ؟

ـ وأية عداوة أشد مما لقيت من هذا الذي كان يظهر لي الود ويُسر لي البغضاء ؟ لطالما شهدت أودية أنهار السند آثار حبه لي ! ولو سألتم حصى نهر مهران لنطق من وقع أقدامنا عليه !

ـ تقولين ان محمد بن القاسم أحبك أيتها الأميرة السمراء!

ـ نعم أحبني حتى أسلمت له قلبي ، وسلمته زمام هواي ، ولكنني ما كنت أدري أنه كلف بالنساء ، متقلب في الأهواء . ولو كنت أعلم أنه لا يثبت على حب ما منحته من نفسي ما منحت ... فلما أبنت له العبث الذي يعبثه بقلبي، رماني بدائه ، وتجنى عليّ ذنب التآمر والمخامرة ، ووجد السبيل الى الخلاص مني ، والقذف بي الى مطارح هذا الإسار البعيد .

ـ وما ظنك أيتها السمراء لو أبلغت خليفتنا المحبوب سليمان بن عبد الملك على لسانك أن محمد بن القاسم لم يكن ـ حين قتل أباك واحد" من جنده ـ أميناً عليك ، ولا عفيفاً معك ، ولا صائناً فيك أمانة العذارى المصونات ؟

دخل صالح بن عبد الرحمن على الخليفة سليمان بن عبد الملك يعرض عليه من أمور خراج العراق ما كان موكولا بـه ، فسلم تسليم الخلافة ، فلما أذن له سليمان بالجلوس تبع ذلك بسؤاله قائلا :

ـ كيف حال العراق يا صالح بعد أن استعملتُ عليه يزيد بن المهلب وهو الضارب بسيوفنا ، المتقلب في نعمنا ، المقيم على طاعتنا ؟

ـ إن العراق يا أمير المؤمنين يدين لك بالطاعة ، ويقر لك بالبيعة ، ويؤكد لك العهد الذي كان أخوك الوليد يريد أن ينزعه منك ، ويكرر لك التهنئة بما صرت إليه من ولاية أمر المسلمين .

ـ وما حال الخراج يا صالح منذ ألقينا تبعاته عليك ؟

ـ تَعْلمُ يا مولاي أن الحجاج مع عنفه الشديد لم يستخرج مـن خراج العراق كبير أمر ... ومـا كان ـ قبحه الله ـ يصلح للدنيا ولا للآخرة ، لقد ولي العراق في العام الخامس والسبعين من الهجرة ، والراق أوفر مايكون خراجاً ، فأخسَّ به الى أن صيره الى أربعين ألف ألف ، مع أنه بلغ في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الى عشرة

آلاف ألف ومائة ألف ألف . وكان من الواجب أن يزيد خراج العراق مع زيادة الفتوح ، واتساع العمارة . ولكن الحجاج لم يكن يعرف كيف يحتال للمال فيجلبه ويعمر به خزائن الدولة، فلا بد من بعض الوقت يمضي ، حتى استصلح من أمر الخراج بالعراق مافسد ... والله يبلغنا الأمل بك ، ويطيل العمر لك ...

ـ آه يا ابن عبـد الرحمن لقـد ذكرتني بالحجاج ومساوئه ! ذكرتني المظالم التي ارتكبها ، والسجون التي ملأها بكل من أخـذه بريبة ، والأرواح التي أزهقها ... ثم جرّني التذكر الى ماكان من موقفه مني في مسألة ولاية العهد ، وأنا أحق بها من ابن أخي الوليد . ولقد رد الله كيده في نحره فأفسد عليه وعلى قتيبة بن مسلم تدبيرهما ضدي . فأنا مازلت كارهاً لهذا الرجل الذي استوجب سخطي عليه بما سلف لي منه ... والشيء بالشيء يذكر ! ما حال قوم الحجاج من بني عقيل ، وقد طلبتُ الى يزيد بن المهلب أن يخلص أموالهم ويعذبهم ، فترك يزيد ذلك إليك ؟

ـ ان بني عقيل يا مولاي يلقون في مدينة واسـط جزاء ما أسلف الحجاج من ظلم وعسف ، ولا أظنهم الاخليقين بالعذاب الذي يُصب عليهم اليوم في سجن واسط ، فان

هواهم كهوى عميدهم الحجاج لم يكن معك يوماً ما ، ولا كانت قلوبهم معك قبل أن يعهد الله إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار اليك أمرهم . فليذوقوا في غيابات السجن وبال أمرهم ، وجزاء ميلهم .

ـ ولكن يؤلمني يا ابن عبد الرحمن أنني أغلقت في بداية عهدي السجون التي ملأ بها الحجاج الأبرياء ، وأخليت سراح الأسرى الذين كان يأخذهم بأدنى الشبهات ، ثم أجيء أنا فأفتح سجن مدينة واسط ـ التي بناها الحجاج لدولتنا في العراق ـ لأملأ به أهل الحجاج وقومه من بني عقيل .

ـ ليرتح ضميرك ، ولتطمئن نفسك يا أمير المؤمنين بما صنعت ! فإن قوم الحجاج قد استطالوا وتكبروا ، وظنوا أنهم فوق منال كل سلطان ، حتى لقد بلغ من جرأة أحدهم ـ وهو محمد بن القاسم ـ أن يستعلي في السِّند حين نصر الله جيش المسلمين على يديه ، فعلا في تلك البلاد علواً كبيراً وظن أنه أكبر من حدود الله التي أخذ بها عباده ، فاعتدى على سيتا بنت الملك ذاهر ملك السند اعتداءً فاحشاً ، ونال من عفتها مالا يصدر عن كواسر الوحوش ، ومالا يليق ببنات الملوك ، وأميرات القصور . ولو أن الجناية الفاحشة ،

وقعت من جندي من عامة الجيش لعظمت فيها البلية ، وجلّ فيها الخطب ... فكيف وقد وقعت من القائد الغر الذي أرسله الحجاج الى السند ، ليكشف لأهلها عن مساويه ، ويبين لهم عن مخازيه . فكل عيب فيه فهو مردود إلينا نحن العرب ، وكل فضيحة منه فهي منسوبة في نهاية المطاف إلينا ، وعائدة علينا ...

ـ ومَن أنبأك بهذه الشنعاء يا صالح ؟

ـ أنبأتني بها الضحية نفسها ، التي أوقعها سوء حظها في مخالب وحش من وحوش بني عقيل ! أخبرتني بها الفتاة السندية سيتا بعينها ، وهي في دار الشيخ صفوان ، وما داره منا ببعيدة .

ـ يأبى الله يا صالح الا أن يكشف من قوم الحجاج كل يوم عورة جديدة ! إن الحياة في السجن لا يستحقها مغرور بني عقيل ! انه لحقيق أن تسلب منه الحياة بعد الذي سمعتُ منك عنه . وأنا واثق مما قلت ، فلا حاجة الى تحيق أو استشهاد بأحد . ولا أجد غيرك يا صالح أقدر على القيام باستلال نفس هذا الفتى الغر من بين جنبيه ! فمتى أنجزت مهمتك هنا وعدت الى العراق ، وحللت في مدينة واسط حيث دار الخراج تنتظر عودتك ، فلا تبطىء في تنفيذ

ما يستحقه ابن القاسم من الجزاء .

* * *

وانقضت مهمة صالح بن عبد الرحمن في شأن الخراج، وهي التي من أجلها وفد على دمشق . وعاد الى واسط وقد حمل من الخليفة سليمان تفويضاً بقتل محمد بن القاسم الثقفي ، واذا زاد بقتل بني عقيل كلهم المحبوسين في سجن واسط فإنها زيادة يرجو بها زيادة الحظوة عند الخليفة سليمان ...

وما كادت المطايا يبلغن واسط ـ مدينة الحجاج ـ بما يحملن من صالح بن عبد الرحمن ورجال حرسه ، ولم يكد المسافر العائد يقر عيناً بالإياب ، حتى خيم على المدينة الصاخبة وجوم عميق ... وسرى النبأ من واسط الى كل بقعة من بقاع الأرض ، وأسبقهن دمشق ـ بأن صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق قتل في السجن محمد بن القاسم ـ بطل السند ـ وقتل قومه من بني عقيل ...

لم تأخذ سيتا الى هذه اللحظة ثمن القرية التي افترتها على البطل الشهيد ... لقد وعدها صالح بن عبد الرحمن ، وهو يخيط أطراف مؤامرته ، أن يساعد على إطلاق سراحها ، وردها الى قومها في بلاد السند ، لعلها تلقى هناك شمل أسرتها متجمعاً بعد أن سكنت حركة الفتوح ، ولعلها تعود فترى حبيبها الأمير السندي الذي كان خاطباً لها ، ففرقت الأحداث مابين الاثنين ...

ولكن صالح بن عبد الرحمن كان في شغل عن الوعد الذي وعد به سيتا ... لقد كان في هم من أمر الخراج وزيادته حتى يزيد في نظر الخليفة سليمان قدراً ومكانة ، وهل فكر عمال الخراج في أمر غيرهم مثل تفكيرهم في أمر أنفسهم ؟

ألم يكن عمال بني أمية قبل هذا العهد الذي نحن بصدد الكلام فيه يزيدون في الخراج مايرهق الناس من أمرهم عسراً ، حتى ضج الناس وضاقوا ؟ ألم تكن رغبة معاوية ـ أول خلفاء هذه الدولة ـ أن يزيد الخراج في مصر

على كل امرىء قيراطاً ، فامتنع وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر قائلاً : كيف أزيد عليهم ، وفي عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟

ألم يستقل الخليفة عبد الملك بن مروان قدر الخراج في عهده على كل رأس ، فبعث الى عامله ، فاحصى الجماجم، وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب مايكسب العامل سنة كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وإدامه وكسوته، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعا وجعلها طبقة واحدة ؟

لقد كان همّ عمال الخراج أن يرضوا الخليفة ، ولا يكون رضاه الا بالزيادة في الخراج ... ففيم يفكر صالح ابن عبد الرحمن إذن في أمر سيتا ابنة الملك ذاهر ، أو في غيره من توافه الأمور ؟

جلست سيتا ذات يوم في مكان خدمتها بدار صفوان تتحدث مع جارية من جواري الشيخ الثري كان اشتراها من سبي فارس وأغلى فيها الأثمان . وكان في الجارية الفارسية براعة في الحديث ، ولطف في مداخل القول ، وذكاء يبدو

على بريق عينيها ، فوق ما حباها الله من رقيق الجمال .

ولقد كانت الجارية الفارسية حديثة عهد بالاجتلاب من بلادها ، ومرت في طريقها الى الشام بمراحل ، كانت البصرة إحداها . وفي البصرة سمعت طائفة من الأخبار التي كانت تتلقفها أفواه الغادين والرائحين في هذا الثغر الاسلامي الذي كان يموج بألوان من الخلق ...

وسمعت الجارية الفارسية فيما سمعته أن بعض بلاد السند قد انقضت على الدولة الأموية ، وأن ملوك السند رجعوا الى ممالكهم ، وأن الأمير جيشبة بن ذاهر ملك السند المقتول قد رجع الى مدينة برهمنا باذ . وجيشبة هذا هو أخو الأميرة سيتا التي كان لها مع ابن القاسم بطل السند شأن أي شأن ... جلست سيتا تستمع الى هذه الأنباء من رفيقتها في الرق ، وزميلتها في دار الشيخ صفوان . ولما ذكر اسم أخيها جيشبة على مسمعها عادت بها الذاكرة الى ماض لا ينسى ...

لقد كان جيشبة هذا أحد الشبان الثلاثة الذين كانت تتسلل إليهم الأميرة سيتا في ظلمات الليل الأليل ، لتحمل إليهم في مطاوي الظلام كل ليلة أنباء عن محمد بن القاسم

أمير السند وقائد جيوش المسلمين فيها . فهي إذن كانت عيناً على المسلمين وجاسوساً على جيوشهم وبطلهم في السند ، وكان العدل وعادل القصاص يقتضي أن يقطع رأسها حين انكشف أمرها ، ولكن البطل العربي الشاب أبدلها من القتل بالأسر .

مر هذا الماضي الذي أوجزناه في شريط طويل أمام عيني سيتا ، وتذكرت مروءة محمد بن القاسم معها ، وحبه لها ، وصيانته لشرفها ، وحفظه لعرضها . وكيف قلبت كل هذه الفضائل الى أضدادها أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق ، لعلها تشفي حقدها على بطل السند لقتل والدها وضياع بلادها . أو لعلها تظفر من هذا الافتراء المحض بثمن بخس وهو أن يفك إسارها ، ويطلق سراحها ، وتعود الى أرضها وقومها وخاطبها ...

وتذكرت سيتا فوق ذلك كرم ابن القاسم في معاملة أهلها وأهل السند عامة ، حتى بكوه يوم صدور أمر الخليفة الجديد سليمان بعزله من إمارة السند وقيادة الجيش ، فاحتقرت نفسها أن يكون هذا جزاء من أحسن إليها ، وبرّ بها ، واقتضاه الشرف العربي والخلق العربي أن يصون لها شرفها .

وأخذ ضميرها يؤنبها ، ويتنبه فيها شيئاً فشيئاً ، حتى بات يعذبها بوخزاته ، وأليم حسابه . فلم تطق سيتا صبراً على عذاب لا يطاق بجانبه عذاب الأسر ، ووجهت الحديث الى رفيقتها الجارية الفارسية قائلة :

— يا أختاه ! إن السّند الذين تخبرين الآن عنهم هم قومي ، وجيشبة هذا هو أخي ، وداهر هو أبي الذي قتله محمد بن القاسم حين فتح مملكتنا وأضاع ملكنا ... والحق أن ابن القاسم لم يقتل أبي بيديه ، ولكنه قتل على يديه ... قتله القاسم بن ثعلبة بن عبد الله . فهو اسم سيظل عاكفاً على ذاكرتي حتى أوسد في التراب ... ولا أدري يا أختاه لم حملت كل هذا الحقد على محمد بن القاسم ؟ ألأن اسمه اقترن دائماً بمقتل والدي داهر الذي أحببته بما لا تحب به ابنة أباها ؟ أم لأنه ضيع الملك الذي بناه أجدادي في مئات السنين ؟ أم لأنه شتت شمل أسرتي فتفرقوا بعد أن كان شملهم جميعاً ، وأمرهم مجموعا ؟ أم لأنه أرسل بي الى الأسر في العراق والشام حتى بلغت بي الأيام هذا المقام ؟

لقد اعترفت أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج الخليفة سليمان بأن محمد بن القاسم عبث بشرفي ، ولم يصن عرضي . وما كنت — شهد الله — إلا متجنية ومفترية على

رجل بريء لم أر الكرامة مكتملة إلا فيه ، ولا الشرف لاصقاً إلا به ، ولا الأمانة الا أولى فضائله . وان ضميري الآن ليعذبني عذاباً لا أظن أن أحداً من العالمين قد لقيه . فأشيري عليّ يا أختاه !

ـ بماذا أشير عليك يا سيتا وقد سبق السيف العذل ؟ أما سمعت الأنباء التي تجاوبت بها أنحاء العراق ، واهتزت جنباته ، واحتملها البريد الى الشام بأن محمد بن القاسم ـ بطل السند ـ قد قتله صالح بن عبدالرحمن عامل الخراج لسليمان ، وقتل معه قوما من بني عقيل ؟

ـ قتل محمد بن القاسم ! ولا تزال الفرية التي افتريتها عليه عالقة به ؟ ! إن هذا لن يكون ! من يبلغ الخليفة سليمان ابن عبد الملك أنني اختلقت على محمد بن القاسم مالم يتسرب به الوهم الى نبالة نفسه ، وشرف خلقه ؟ من مُبلغ الخليفة أني ادعيت على الرجل الشريف ما هو منه براء ؟ ان سماء السند وأرضها ، وجبالها وأوديتها تشهد بأن محمد بن القاسم بريء مما نسبته اليه ، واختلقته عليه .

ومضت الجارية الفارسية ـ وقد أذهلها ماسمعت من سيتا وما رأته منها ـ الى سيدها ومولاها صفوان ، وأبلغته ما حدث . فاستقدم سيتا اليه واستوضحها الأمر ، فأعادت

عليه ما قالته لزميلتها .

وانطلق صفوان الى قصر الخليفة سليمان وأنبأه بما قالت سيتا كلمة كلمة ، لم يخرم منه حرفا واحدا .

وكان في سليمان عدالة وتحرّ للإنصاف ، فقد اتخذ الرجل الطيب والمسلم المثالي عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ، وعهد إليه بالخلافة من بعده ، لما لمح فيه من الخير والفضل والحرص على مصالح المسلمين ، ولم يعهد بها الى أحد من أبنائه ، كما كان يحرص أسلافه من الأمويين .

فاهتز الخليفة سليمان لما سمعه ، وأمر بسيتا أن تحضر وأن تقرر بين يديه ، فحضرت وأقرت ببراءة ابن القاسم مما اتهمته به حقداً وانتقاماً .

وعز مقتل محمد بن القاسم على سليمان مأخوذا بفرية لم تخطر له على بال ، ولم تعلق له بوهم ، ولم يتلوث ضميره بالتفكير فيها بشهادة المفترية نفسها . فأمر بها أن تقتل كما تسببت في قتل بطل السند بالظلم والعدوان ، والإفك والبهتان ...

ومضت العصور متتابعة تحمل لمحمد بن القاسم بطل السند بعض الإنصاف حينا ، وبعض الجحود أحياناً ، فضن عليه التاريخ بإفاضة الحديث عنه كما يفيض على الفاتحين والأبطال . ولم يجُد عليه التاريخ – بعد أن أدخل الملايين في الاسلام – الا بنتف يسيرة من الأخبار لا تتكافأ مع ماقام به من جلائل الفتوح ، والجهاد في سبيل الله .

ولعل هذه الصفحات هي أول كتاب يكتب في تاريخ فاتح السند : محمد بن القاسم الثقفي ، رحمه الله ، وعطر ذكراه ...

مصارع الفاتحين
في عهد الخليفة سليمان

لعل أعجب مافي عصر الخليفة سليمان بن عبد الملك – هو لم يزد في خلافته على سنتين وستة أشهر – أن ثلاثة من أبطال الفتح الاسلامي لقوا مصارعهم على يديه أو بتوجيه منهم .

وأول من قتل من الفاتحين المسلمين في عهده هو الفتى الثقفي المغوار ، والبطل الشاب الجرىء محمد بن القاسم الذي قرأنا من أنبائه وأخباره الى الآن مالا حاجة معه لزيادة ولا موضع لإعادة ...

أما ثاني الأبطال المسلمين الذين قتلوا بسبب الخليفة سليمان بن عبد الملك فهو المجاهد الغازي قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي فتح خراسان وتركستان وأوغل في بلاد الصين حتى خشيه ملوكها وتقربوا إليه ، والذي تدين له ألوف الألوف من المسلمين في قلب القارة الآسيوية بأنه نشر الإسلام فيهم ، وأعلى كلمة الله بينهم ، وأنشأ فيها المساجد ترتفع من مآذنها أصوات المؤذنين ، وهم يدعون الى الصلاة

والى الفـلاح ، ويهتفون : الله أكبر الله أكبر ، فتستجيب لهم القلوب ، وتخشع النفوس ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، كما كانوا يدخلون في العهود الأولى للإسلام •

واختلف الناس في المصرع الذي لقيه القائد قتيبة بن مسلم على يد رجال سليمان ، فمنهم من استفظع قتل مجاهد رفـع الله به ألوية الاسـلام فوق كل مكان ••• ومنهم ـ كالمؤرخ ابن كثير ـ من سوغ قتله بأنه زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه •• وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتـة جاهلية ••• ولكن سبق له من صالح الأعمال ماقد يكفر الله به سيئاته، ويضاعف بـه حسناته •

والحق أن مصرع قتيبة كان شديدا على المسلمين الذين أدركوه والذين جاءوا بعده الى يومنا هذا ••• ولقد رثاه الشعراء مراثي رقيقة مفجعة حزينة تتفق مع بشاعة المصرع ، منهم عبـد الرحمن بن جمانة ، والطرماح ، والشاعر جرير الذي يروي ابن خلكان المؤرخ أنه قال متفجعا يلوم قاتليه :

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم وأنتم اذا لاقيتم الله أندمُ
لقد كنتم من غزوه في غنيمة وأنتم لمن لاقيتمُ اليوم مغنم
على أنه أفضى الى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم ..

* * *

أما ثالث الفاتحين الذين قتلوا في عهد الخليفة سليمان ابن عبد الملك وبتحريض منه فهو عبد العزيز بن موسى بن نصير . ولقد كان عبد العزيز هذا أميراً على الأندلس بعد أن فتحها أبوه موسى بن نصير ، فضبط أمورها ، وحمى ثغورها ، وأكمل فتح عدة من المدن الأندلسية . ولكن سليمان بن عبد الملك سخط على أبيه موسى بن نصير وهو بالشام ، فيقال إنه بعث الى الجند بالأندلس في قتله ... فدخلوا عليه المحراب وهو يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ، وضربوه بالسيوف ضربة واحدة ، وأرسلوا رأسه الى الخليفة سليمان بدمشق ، فعرضها سليمان على أبيه فتجلد الرجل للمصيبة .

وجزع المسلمون هذه المرة أيضا لمصرع جديد لفاتح وابن فاتح في عهد سليمان ، ولكنهم لا يزالون يذكرون أن مصرع بطل السند كان أمعن في الغدر ، وأشد في الفرية التي أحاطت به ، والكذبة الشنعاء التي افتريت عليه .

ولعل المسلمين لا يزالون يرددون كلما ذكروا فتحاً ، أو شجاعة ، أو مروءة ، أو سؤدداً على حداثة من السن ، وميعة من الشباب ... لعلهم لا يزالون يرددون قول الشاعر حمزة بن بيض الحنفي في رثاء بطل السند محمد بن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

ولعلهم في وقائهم لذكرى أبطالهم ، والخالدين من رجالهم يذكرون قول الشاعر الآخر في رثاء البطل العظيم :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال